

ذكرى شهداء العلم والخبرة

فرج سليمان فؤاد



ذكرى شهداء العلم والغربة

تأليف
فرج سليمان فؤاد



ذكرى شهداء العلم والغربة

فرج سليمان فؤاد

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١١٢٧ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٢.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	كتاب ذكرى شهداء العلم والغربة
٩	تمهيد
٣١	تواريخ حياة الشهداء
١١٣	بعد وقوع الفاجعة
١١٥	عناية الوفد المصري بالشهداء
١٤١	قصائد مشاهير الشعراء في رثاء الشهداء
١٥٣	كلمات الكُتاب في رثاء الشهداء

كتاب ذكرى شهداء العلم والغربة

أول كتاب من نوعه

ما كدنا ننشر كلمتنا في الصحف العربية عن كتابنا شهداء العلم والغربة، حتى ورد إلينا من سائر جهات المدن والأقاليم ومن طلبة العلم في أوروبا الخطابات العديدة، التي تشف عن الإخلاص والحب لهؤلاء الشهداء، وتعرب عما تكنه قلوبهم من الأسى والحزن لفقد إخوانهم، الذين استشهدوا في سبيل العلم بصدمة القطار بين حدود إيطاليا والنمسا عند بلدة «مونتبا». وكل هذه الرسائل ملأى بتحبيذ عملنا تنشيطاً لنا لقيامنا بوضع هذا الأثر الخالد لشهداء العلم الذين استشهدوا في سبيله.

وإن ما يراه القارئ الكريم هنا من كدّ القريحة، وسهر الليل، وما كابدها في هذا السبيل لا نعهده في نظرنا شيئاً مذكوراً بجانب واجب خدمة الوطن المفقدي، عملاً بالمبدأ الشريف «لا شكر على واجب ولا ثناء على إخلاص»، ما دام غرض العامل الجهاد في سبيل حب الوطن. وإنا نعتذر لحضراتهم لعدم نشر رسائلهم الخاصة بالثناء علينا، تقديساً للمبدأ الذي اتخذناه لأنفسنا دستوراً، ونكتفي بذكر كلمتين لفاضلين من محبي الأدب على سبيل التحبيذ لهذا العمل والتشجيع الأدبي.

فقد أرسل إلينا حضرة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الماجد، المدرس بمدرسة معلمات الإسكندرية، في ٢٣ مايو ١٩٢٠ خطاباً صَدَّره بهذه الأبيات:

يا جامعاً شيم العليا وحافظها أشبهت في جمعها الفتح بن خاقانِ

فذاك جامعها في أرض أندلس وأنت تجمعها في أرض هامان
جاءت (قلائده) في الدهر واضحة كأنها البدر في حسن وتبيان
«والكنز» أنفس قدراً من قلائده فكم به جوهر يُهدى وعُقيان
«كنز ثمين» لنا قد صاغه «فرج» الوارث الفضل فينا عن «سليمان»
حاشاي أجعل في مكنونه خرزاً أو أن أشين لآليه بمرجان

وبعث إلينا حضرة الأستاذ الشيخ علي إبراهيم عيد الجيزاوي من خريجي الأزهر الشريف والتاجر بقنا بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٢٠:

أجل قمت ترعى الواجبات وليتها فرائض فرد بل فرائض أمة
فحزت فخاراً أنت أولى الورى به وأنت خليق بالعلل والمبرة
وكيف وهذي مصر تهديك شكرها وذا نيلها الميمون يثني بهمة
يقولان حقاً إنه «فرج» لنا أمناً به دهرنا كل نكبة
جُزيتَ عن الشبان خيراً ولا رأى فؤادك مكروهاً فدُم في مسرة

ومنه أيضاً:

بلغت مكاناً فوق ما يُتصوّر وأنت وايم الله لا شك أجدر
وجدت ذكرى سألني عظمائنا ومن هم على قيد الحياة يُعمّروا
وضعت لنا «كنزاً ثميناً» نجّله ويحفظ في طيّ القلوب ويؤثّر
وبرهنت للأنام أنك حاذق وأن بمصر ناهضين يوقّروا
علّوا وتساموا في الحياة وجاهدوا وحلّوا محل النّيّرات فنوّروا
وما هي إلا بكرة أو عشية تمر بنا حتى نسود ونكبر

تمهيد

تمر بالأمم فترات من سبات عميق، لا تلبث بعدها أن تهز أعصابها يقظة عامة، تملأ جسمها نشاطاً وحياءً، وتدفع بها في سبيل الرقي. فهذه أمة اليابان المجيدة نهضت بعد طول خمودها، واشتعلت جذوة همة أبنائها بلهب من حرارة الوطنية الصادقة، فأدهشت العالم باستعدادها وقوتها ومنافستها التجارية، وغيّرت فراسة الغرب في أمم الشرق. ولم يبعث فيها تلك الهمة وينفخ في جسدها تلك الروح غير رجل من رجالها العقلاء وحكيم من حكمائها النبهاء هو الإمبراطور موتسهيئو، الذي لو أُتيح لكل أمة من أمم الشرق رجل مثله لكان العالم على غير ما هو عليه اليوم.

وفي خلال القرون يبعث الله الأمم أمةً فأمةً، كما بعث بولونيا من رُمسها وأسلمها تاجها وصُولجانها، فقامت وهي فتية وحديثة العهد بإعادة التكوين تريد أن تقهر حكومة سوفيت روسيا، وما ذلك إلا بدافع ما في نفوس أبنائها من الوطنية الصادقة والإخلاص المحض لبلادهم المحبوبة.

ومن الأمم التي أراد الله لها النهوض في القرن العشرين أمتنا المصرية، فقد اندفعت في سبيل نهضتها الحديثة، تترنم بأناشيد الحياة، وتتطلع إلى تراث آبائها وأجدادها بروح ملؤها الإقدام والهمة. ولم تجد عدة لجهادها السلمي في سبيل حياتها خيراً من انتجاع موارد العلم الصحيح، وإرسال البعثات تلو البعثات تترى إلى منابعتها في أوروبا، متتبعَةً في ذلك سنة مُنهض مصر العظيم المغفور له محمد علي باشا الكبير، الذي أزهرت رياض التعليم في عصره، وأينعت ثمارها بفضل يقظته وإقدامه، وبذله بسخاء على الإرساليات التي كان يوجهها إلى الغرب، وبفضل التعليم الإجباري المجاني الذي كان يُساق إليه أبناء مصر من كل فج فيقبسون من نوره ليرشد بلادهم إلى طريق الحياة. وقد أثمرت مجهوداته تلك فكانت القوة والمنعة، والثروة التي لا تزال مصر راتعةً في بُحْبُوحاتها إلى

اليوم، وصارت في أيامه غنيةً بمصنوعاتها ومواردها. ولم يكن يعوزها شيء سوى أن تبعث بالطلبة ليرتشفوا من منهل كل فن وعلم، حتى إذا ما عادوا سلّمت إليهم مقاليد الأمور، فكانوا من أشدّ العوامل على رقي الأمة.

وكنت ترى في البلاد كل شيء يسير في طريق النمو، فكان لمصر مدارس تفيض أنوار علومها، ومعامل تخرج منسوجاتها وعدة جيشها، وأسطولاً يصون شواطئها، وجيشاً يحمي زمارها، فكان في البلاد حاجتها من الأطباء والمهندسين والمشرعين، بيد أن صعوبة المواصلات في ذلك العهد كانت سبباً لعدم استمتاع سائر أنحاء القطر بما تتمتع به القاهرة والإسكندرية. وكان للوجه القبلي نصيب ضئيل من التعليم، ولم يكن يفد على القاهرة منه غير بعض الطلبة الذين كانوا يقبلون على المراكب النيلية إلى الأزهر الشريف للتزود من العلوم الدينية التي كان قاصراً عليها.

وظلت الحالة العلمية في البلاد تسير ببطء بعد عهد المغفور له إسماعيل باشا الخديو، الذي أسس مدرسة الأنجال التي كان التعليم فيها وفقاً على أبناء الذوات والأعيان، ولم يكن لأبناء الفقراء غير الحسرة على حرمانهم من ذلك المورد العذب.

وانحطت حالة التعليم بعد ذلك انحطاطاً مريعاً لولا أن غني بعض الذوات بإرسال أبنائهم إلى أوروبا، وتضاعف الاهتمام بذلك حوالي عام ١٩٠٨، ومنذ ذلك الوقت أخذت أنوار النهضة العلمية الحديثة تشع في أنحاء البلاد، وأخذ أعيان الريفيين يبعثون بأبنائهم، وينفقون في سبيل تعليمهم بسخاء حتى أصبحت البلاد ملأى بحمّلة الإجازات العلمية والدبلومات الدالة على النبوغ والتفوق. وكان أبناء مصر في بلاد الغرب مثال الذكاء والنشاط والاستعداد الفطري، حتى حازوا عاطر ثناء أساتذة كليات أوروبا وجامعاتها. وها هم اليوم أبناؤنا الذين عادوا إلينا يؤدون لمصر أجل الخدمات، ويبثون في نفوس ناشئتها روح النهوض والعلم الصحيح.

إن للشرق من تاريخه القديم ومجده الذائع الذي لم يقوَ الحدثان على إخفاء معالمه، ما يجعل أهله يرفعون برءوسهم تيهًا وإعجابًا، وأبناء مصر أولى الشرقيين بذلك. وتاريخ مصر مفعم بصفحات الفخر، وحسبنا أن يكون آباؤنا القدماء أصحاب اليد الطولى على العلم، وحسب بلادنا أن تكون منهلاً عذباً للواردين. وهذه عملية تحنيط جثث الموتى تشهد بذلك، فقد عجز علماء الغرب عن الوقوف على حقيقتها بعد إجهاد القرائح وكُدّها، مع تعرفهم ببعض مواد كثيرة من عناصر التحنيط. وهذا الهرم الأكبر يدل على تقدمهم في فن البناء، وما يستلزمه من العلوم الفلكية والهندسية، لأن وضعه يدل على المهارة الفائقة، وعلى سعة العلم وبلوغ العقل المصري مبلغاً عظيماً من التفوق والإحكام.

وهناك أيضًا غير الهرم قصر «لابيرانتا» بالفيوم والكرنك بالأقصر وقصر أنس الوجود والعاديات والجعل الدقيقة الصنع التي تملأ دار الآثار في مصر وفي أوروبا، وكلها تدل على مدنية أجدادنا وحضارتهم.

ولم يكن ذلك فقط، بل كان للمصريين من الفتوحات وقهر الأمم ما يدل على قوة جيوشهم، وحسن عنايتهم بتنظيمها وتدريبها وإعداد عدتها، ولا ننسى الأساطيل المصرية التي كانت تخوض في أيامهم عُباب بحر الروم وقد وصلت في عهد رمسيس الأكبر إلى المحيط الهندي.

وكانت مصر في عهدها القديم ينبوع حكمة وفلسفة، استقى منها فلاسفة اليونان وحكماؤهم، وأطلق عليهم بذلك — وبغير إنصاف — آباء الفلسفة ومعلموها الأولون، وكان أساتذتهم المصريون أحق منهم بذلك وأجدر.

وكانت المرأة المصرية أيضًا موضع احترام الرجال، وكانت حائزةً لجميع حقوقها، وقد تولت الأمر وتربعت على دَسْت الحكم، وكان لها النهي والأمر. ومما يدل على رقيها المدهش أن أحد علماء العاديات في إنجلترا حمل إحدى الموميات إلى لوندرا من مصر، ولما فض تابوتها واطلع على أوراق البردي الموضوعة مع جثتها وقرأها عرف من تاريخ حياتها أنها كانت من أعضاء نقابة «صناع الفطير». ومن هذا يتبين لنا أن المصريين سبقوا الغربيين في تأسيس النقابات وفي تقديس مركز المرأة في الهيئة الاجتماعية، وغير ذلك مما لم يصل علمنا إليه.

فنحن إزاء نهضتنا اليوم لتحصيل العلم إنما نعيد سيرة آبائنا الأولين، وسنرد مجدنا القديم الذي طُويت صحائفه وكاد يودي به تأخرنا وتقاعدا، وتركنا حبل شئون الحياة على غاربها.

وليس يخفى فضل العلم في إحياء الأمم وجعلها موضعًا للاحترام والتبجيل، وقد وجهت الحرب الحديثة نظر المصريين إلى تلك المخترعات العلمية المدهشة والأساليب الفنية العجيبة التي أظهرها الغربيون، ومنها تلك الطائرات التي كانت تحلق في الأجواء وتروع الطير في السماء، والغائصات التي كانت تسبح في جوف الماء فتفر منها الأسماك، والمفرقات التي كانت تخر منها الجبال، والمدافع الضخمة والدبابات التي كانت تأتي على الحصون، والتلغراف والتليفون اللاسلكي الذي أدهش العالم بنقله الأصوات، والكهرباء التي تضيء بمجرد إدارة زرها، وحاكي الصدى، والسيارات، وغير ذلك من مدهشات القرن العشرين. وقد عرف المصريون بذلك فضل العلم فالتمسوا حياتهم من طريقه،

ووجهوا بأبنائهم لموارده الصافية. فهم إن طلبوه اليوم فإنما يطلبون ما كان ميزة لأجدادهم من قبل، وكل من سار على الدرب وصل.

(١) الهجرة في سبيل العلم

قال النبي ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، وقد حث بذلك على الجهاد والهجرة في سبيل العلم، ولم يكن في ذلك الوقت أبعد من الصين على طالبها، فكانت غاية مرحلة أهل الدنيا، وذلك لجلال العلم وتفرد به بخلق حياة الأمم ورفع قيود الجهالة عنها.

وقد كانت المرأة المصرية فيما مضى من أيامنا الأخيرة جاهلة لا تعرف للعلم قيمة ولا معنى، فكانت تَضُنُّ بفلذة كبدها على أن يحمل مشقة الهجرة في سبيل العلم ليعود إليها حياً بعد موته، وعالمًا بعد جهله، ونبياً بعد خموله، وقد كان يسرها أن يلبث بجانبها عالمة على أهله وأمته من أن يرتحل عنها ليعود إليها عالماً كبيراً. وكانت المرأة لها العذر في ذلك، لأن الظلام الذي كان مخيماً على عقلها كان يحجب عنها نور الحياة، ولا تستطيع أن تصدر حكماً على شيء لم تره بعينها. ومن نشأ في الظلام أَلْفَه وأصبح لا يفرق بينه وبين النور، وحسبك بالخفاش مثلاً.

أما اليوم فقد تنبعت المرأة وعرفت قيمة العلم، وملأ قلبها حب الوطن بفضل هذه النهضة الحديثة، فأصبحت تشارك الرجل في رأيه وجهاده وأمانيه القومية، وتبحث بنفسها وراء الطريقة التي توصلها إلى توجيه ولدها إلى الغرب ليتعلم ويعود فيكون رجلاً نافعاً لبلاده وأمته. وأصبحت ترى أكثر المصريين يعلمون أولادهم في المنازل، ويرضعهم ثدي العلم والمعرفة، وينبهن قلوبهم الصغيرة، ويفتحن آذانهم لمعانيه الجميلة، ويوجهن بنفوسهم للهجرة في سبيله، ولذلك أخذت الأمة تصعد سلم الرُّقي ببركة تعليم المرأة، وبفضل معرفة الأمة قيمة العلم وأثره الجليل في حياة الشعوب وَمَنَعَتَهَا.

والآن أصبح الرجل والمرأة سواءً في سبيل تعليم الأبناء وتثقيف عقولهم، ليكونوا أساساً لتشديد مستقبل بلادهم وثمرهً لذيذةً تجنيها مصر من غرس يدها المباركة. وما دامت المرأة تعمل من ناحيتها والرجل يعمل من ناحيته، فلا تعجب إذا رأيت البلد تزدهر بشبابها والحياة تنمو بأرجائها، فإن البلاد جسم والشباب روحه، والعلم غذاء تلك الروح.

(٢) الجهاد العلمي

من دلائل نهضتنا الحديثة المباركة شغف الشبان بطلب العلم واهتمامهم بأمر مستقبلهم. والأمة التي تقدر شبيبته العلم قدره وتجاهد في سبيله إنما هي أمة تشيد مستقبلها على أساس لا ينهار بناؤه.

ولقد أخذ الشباب المصري يهاجر من وطنه في الأيام الأخيرة مجاهدًا في سبيل العلم، مستسهلاً المصاعب، هازئاً بالمتاعب، منبثاً في أنحاء العالم، ضارباً بكل سهم في كل علم وفن وصناعة، مبرهنًا على أهلية الأمة للحياة الحرة وعلى حبها للتقدم. وفي كل عاصمة من عواصم أوروبا وأمريكا وفي كل بلدة اشتهرت بشيء من العلم أو الصناعة أو الفنون تجد شابًا مصريًا مشمرًا عن ساعد الجد منكبًا على الدرس والتنقيب والبحث منصرفًا بكليته للتحصيل، حتى تكاد تخالعه جنديًا في ميدان القتال ولا سلاح في يده غير القلم، ولا ذخيرة غير المواد والرغبة، ولا عدو غير الجهالة، ولا غاية غير العلم، والعلم باب لكل غاية شريفة، وعدة للحصول على كل أمل مفقود، والألم التي لا تعرف قيمة العلم لا تعرف قيمة الحياة. ونصيحتي الخالصة لأمتي المحبوبة، أمة الأمل المسجود واليوم السعيد والغد المنشود، أن تجعل كل وجهتها في سبيل العلم وأن تجعل للصنائع المفقودة والفنون العالية نصيبًا من جهادها العلمي، حتى تستكمل عدة نهوضها من كل ناحية فلا يشوبها نقص ولا يعتورها ضعف، وأن تجعل للأدب العالية والأخلاق الراقية نصيبًا من العناية وحسن الالتفات، وأن يضاعف المجاهدون في سبيل العلم من شبابنا الحي الحريص على وقته جهودهم حتى لا تفوتهم ثانية من وقتهم الذهبي. وأما من لها واستكان إلى حظ نفسه فالأمة براء منه وحسبه الله في وقته الذي يضيع وزمنه الذي ينفق وعمره الذي يذهب سدى، والله درُّ أمية ابن الوردي حيث يقول:

حُبُّكَ الأوطان عَجَزَ ظاهر	فاغترَبَ تَلَقَّى عن الأهل بدل
فبمكث الماء يبقى آسنًا	وسُرى البدر به البدر اكتمل
في ازدياد العلم إرغام العدا	وجمال العلم إصلاح العمل
فاهجر النوم وحصله فمن	يعرف المطلوب يحقر ما بذل

(٣) سفر شهداء العلم والغربة

رأى شباب مصر بعد أن خمدت نار الحرب العامة أن بلاد الألمان موردٌ للعلم لا ينضب معينه فأزمعوا الرحلة إليها، ووصلت القافلة الأولى منهم بسلامة الله ثم بعثت بالرسائل تترى لتدل الأمة المصرية على قيمة العلم هنالك، فاستبق الشبان لانتجاع تلك الموارد الصافيات وأخذوا يَزُمُون حقائق الهجرة، وهمت القافلة الثانية بالإبحار من الثغر الإسكندري في منتصف مارس سنة ١٩٢٠ مزودةً بالدعوات الصالحات من قلوب الآباء والأمهات وقد باركها الوطن المفدى. وأقلعت الباخرة «حلوان» تحمل أمانة مصر وفلذات أكبادها، والبحر إجلالاً لهم في سكون إلا موجات تداعب الباخرة وهي تسير باسم الله مجريها ومرساها، حتى وصلت مدينة تريستا، ونزلت قافلة العلم إلى الساحل واستقلت القطار بعد منتصف ليل الجمعة ٢٦ مارس قاصدةً فينا. وقد اجتمع الطلبة المصريون في مركبة واحدة كانت قد أُعدَّت لهم خصيصاً وهي الثالثة في القطار، وكانت على رؤوسهم الطرابيش، وعددهم نحو الثلاثين طالباً. وكان الجو صافياً والنسيم منعشاً، ولم يكن يُسمع في سكون ذلك الليل غير أحاديث سمرهم الشهية، وغير جَيْشَان الآمال الكبار في صدورهم الفتية، ونفوسهم القوية، وكان النسيم يحمل تلك الأصوات ليهدئها تحيةً عاطرةً إلى مصر العزيزة.

ولما انبلج الصبح أخذ القطار ينساب بين الجبال الخضراء والمزارع البهيجة، والوديان المُعشبة، والعيون المتدفقة، والطيور المغردة. وكانت قافلة مصر تكاد تتخذ من شغفها بالعلم أجنحةً لتصل إلى بغيتها منه، لتعود إلى وطنها كما يعود الجندي الظافر من ميدان القتال، ولكن:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

(٤) الفاجعة الأليمة

بين تلك الآمال الواسعة وأحلام الشباب الجميلة حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد وقفت حركة القاطرة عند الساعة السابعة وهي تصعد مرتفعاً من الجبل لتجتاز معبراً، ثم ارتجت رجة عنيفة انقبضت لها النفوس، ووقفت القلوب في الحناجر، وما هي إلا دقيقة حتى كان القضاء قد نفذ الإرادة الأزلية، ووقعت الفاجعة الأليمة، فسقطت الأمتعة التي

كانت مكدسةً فوق أرفف المركبة على رءوس الطلبة وأكتافهم وهشمت عظامهم ورضت أجسامهم الغضة وأذهلتهم حتى عن أنفسهم، وانطبقت جدران المركبة وخرَّ سقفها، فأخذوا يستنجدون وما من منجد. وما كان آلم للنفوس من أبٍ صاحب ابنه في تلك الرحلة وقد حال القضاء بينهما، ولكن الأب استطاع وهو يجود بنفسه الأخير أن يخاطب ولده «عبد الحميد العبد» مشجعاً ببضع كلمات شدت عزمه وفتحت له منفذاً إلى الحياة، وقد ذهب «إبراهيم العبد» إلى رحمة ربه موقناً بسلامة ولده. وأخذ الطلبة يتبادلون كلمات التشجيع وأغمى على البعض وفاضت أرواح البعض، وكانت ساعةً أشد هولاً من سائر الساعات.

عند ذلك أقبل الناس فأخذوا يزيلون بقايا المركبة، ويخرجون الجثث التي كانت من ساعة مملوءة بالأمل والحياة، وهي بين ميت لا رجاء فيه وجريح يُرجى شفاؤه، ومن سلم أكثر ممن أُصيب فيه مصر، وكان عدد المستشهرين اثني عشر طالباً، عوّض الله مصر فيهم خيراً!

وقد كتب «عبد الحميد العبد»، أحد الذين قُدرت لهم النجاة، يصف أسباب الفاجعة فقال: «كان قطارنا خارجاً من نفق صُعداً، يجتاز جسراً (كوبرياً) على (نهر فيلا)، ولا بد له بعد اجتيازه من الدخول في نفق آخر، والمسافة تبعد نحو كيلو مترين من محطة (مونتبا)، فلم يكد القطار يعبر الجسر حتى صدم مركبتي بضاعة محمّلتين خشباً وكانتا قد انحدرتا من محطة (مونتبا) وخرجتا من النفق بقوة الانحدار. ولا تزال مسألة انحدارهما من المحطة سراً مجهولاً، ويظنون أن لصوصاً كانوا يحاولون سرقة ما فيهما من الخشب، والله أعلم. ولو حصل التصادم على الكوبري قبل أن تعبر القاطرة لما قوي على احتمال الصدمة، وكان انقلب وتدهور إلى أسفل الوادي، وارتفاع هذا الكوبري خمسون متراً. ومن غريب الصدف أن المركبتين السابقتين لمركبتنا لم تصابا بضرر يُذكر، وأن المسافرين الذين كانوا فيهما نجوا من الموت، ومع أن مركبتنا جاءت بعدهما فقد كان نصيبها أن تتداعى جدرانها وينحط ما فيها على المسافرين، فيقضي على نصفهم تقريباً.»

هذا هو ملخص الفاجعة. ولا شك في أن مصاب مصر في هؤلاء الشهداء كان نكبةً عظيمةً، لأن الجهاد في سبيل العلم أفضل وأشرف من الجهاد في سبيل الحرب، ولأن الذي يجاهد في مقاومة عدو داخلي أعظم ممن يجاهد في مقاومة عدو خارجي، والجهل أشد فتكاً بنفوس الأمم من كل عدو خارجي، ولا يمكن دفع العدو الخارجي إلا بمجاهدة

العدو الداخلي أولاً. ولذلك ما كادت تحمل الأسلاك البرقية خبر الفاجعة حتى عم الحزن وشاع الأسى، وانقلبت مسرة النفوس آلاماً موجعةً، وأخذ الناس يعزون بعضهم البعض، ولبس الشباب شارات الحداد. وسنأتي على وصف ما قامت به الأمة الإيطالية المجيدة من العطف والمواساة التي تذكرها لها مصر أبد الدهر.

(٥) مناجاة الشهداء

للألم الناهضة كما للأفراد مفاجآت من الألم تتخلل لذة الأمل، تُنزلها بها الأيام لتختبر صدق عزيمة أبنائها وتقف على مبلغ إرادتهم، وما في طوقهم من الشجاعة الأدبية والقوة النفسية، ومقدار جلدٍهم على الصبر في مكافحة الحوادث الطارئة، وفي تلك التجربة يكون برهان الأمة على مكانتها من العلم والرقى وموضعها من الحياة والأخلاق.

وتنزل النكبة بالأمة فتَهز أعصابها هزاً عنيفاً، تكاد تنفطر له المرائر جزعاً، وتنشق له الأكباد هلعاً، وتطير منه النفوس حسرةً، وتمزق القلوب لوعةً. ولكن الأمة الحية الناهضة الصادقة في جهادها لن يكون هذا مظهرها مهما اشتد الأمر، وإلا لكانت مثلاً يُضرب للضعف والوهن، وإنما تلقى المصائب بصبر وأناة يهونها، وتعمل جهدها لتتخذ من النازلة قوةً، ومن الفاجعة حياةً، وتستمد منها ما يعينها على المضي في سبيلها بشجاعة وثبات بين إعجاب الأمم وإكبار الشعوب.

وقد قضت المشيئة الإلهية أن تصاب مصر في رهط من فلذات أكبادها وجماعة من طلاب الحياة لها، تستقبلهم وهي تحمل شارات الحداد، وقد ملأ الأسى نواحيها، وارتدى شبابها السواد، وانطلق الحزن الصامت فما وجد بسمه في ثغر إلا وأطفأ نورها، خشوعاً لجلال الفاجعة وألمها، وهيبةً للإرادة الإلهية التي قدرت لمصر أن تصاب، وأشفقت بها فألهمت من الرزانة ما يكفل لها الصبر الجميل.

أي أبنائنا الشهداء

لقد رفعتكم مكانتنا أحياءً وأمواتاً، وجعلتم الأمم تبادلنا عاطفة الإخاء، وأكسبتمونا مودتها. إنكم زهبتُم تحملون باقات الآمال الناضرة فأذبلها القدر في أيديكم.

إن الموت أطفأ بكم اثني عشر كوكباً كانت سماء مستقبل مصر أحوج ما يكون إليهم، ولكنه أطلع في الأمة الناهضة بموتهم الوفاً، وزادها بفجيعتها فيهم إقداماً وقوةً ...

أي أبناءنا الشهداء

إنكم كنتم تريدون الحياة فلقيتم الموت، وكنتم تريدون للوطن الخير فأراد الله أن يحقق صدق نواياكم، فجعل لمصر الخير في حياتكم وموتكم.

لولاكم أيها الشهداء ما عرفنا مكانتنا من قلوب أمة الطليان المجيدة، لولاكم ما خرج أبناء تلك الأمة زَرَافَات ووُحْدَانًا، نساءً ورجالاً، إلى ساحة أودين وهم يحملون أعلامنا وأعلامهم، ويمشون بباقات الزهر الجني ليشيعوا جنازتكم إكرامًا لمصر.

لولاكم ما وقف خطباء الطليان يذكرون مجد مصر ويترنمون بكرم مصر ويعززون مصر فيكم.

لولاكم ما فاضت أعمدة صحفهم بأنهر الإخلاص المحض، ولا حملت فضليات سيداتهم وأوانسهم الأزاهر تهديها لجرحانا، عربونًا للصداقة المتبادلة التي تربط قلوب الأمتين، وإن كانت هذه شرقية وتلك غربية.

لولاكم ما رأى العالم تلك الشجاعة الأدبية النادرة التي أظهرها إخوانكم الذين أبوا أن يتخلفوا عن الهجرة بعد الفاجعة، وأبى عليهم إقدامهم إلا أن اخترقوا الطريق نفسه حبًا في العلم والوطن، ولسان حالهم ينشد:

سأبذل في سبيل العلم جهدي ولا أخشى منازل الليالي
فإِما والثرى وأصيب مجدًا وإِما والثريا والمعالي

وقد سمح الآباء لأبنائهم وهم حبات قلوبهم وأشْطَرُ أرواحهم، أن يسافروا وكلهم اعتقاد وإيمان بأن سلامة الوطن فوق سلامة النفس والمال والولد.

أي فخر يحمله آبائكم وأمهاكم أيها الشهداء اليوم، وهم يرون الأمة على بكرة أبيها من أمير ووزير وكبير وصغير تشاركهم الأسى، وتعقد الموكب الرهيب، الموكب العلمي التاريخي، الموكب الذي يشترك فيه الشعب لتمجيد ذكرى شهدائه؟

يا ليت لي ولدًا بينكم أيها الشهداء!

طوبى للذين يموتون في سبيل العلم والوطن، فيُحْمَلون هكذا إلى مضاجعهم الأخيرة! إن تاريخ مصر الحديث سيكون فيه صفحة من النور تحمل اثني عشر اسمًا لكواكب هوت من عالم الفناء لتتألق في عالم الخلود، وتلك هي أسماؤكم يا شهداء العلم.

فعزاء أيتها الأمة الناهضة في أبنائك البررة الشجعان المجاهدين الذين كانوا يحبونك ويخلصون لك، وفي سبيل حياتك تحملوا آلام الغربة، ومشقة الهجرة ومضاضة الفراق. وفي سبيلك استشهدوا، ليشهدوا الأمم على حياتك النامية وعزيمتك الماضية. أما أنتم أيها الشهداء، فقد أديتم الواجب، ولن ينقص من جهادكم مباغطة الأجل، وكفاحكم فخرًا وإكبارًا أنكم هاجرتهم في سبيل العلم والوطن وقلوبكم مملوءة بالأمال لأمتكم والمحبة لوطنكم.

ناموا مطمئنين تحت ظلال الرحمة، فقد عدتم للأرض التي بارك الله فيها، الأرض التي تستريح فيها جنوبكم. ولتشهد أرواحكم على أننا لن نخلف ما عاهدتمونا عليه من متابعة السير بثبات وإقدام حتى تنتهي مرحلة الغرس ويأتي يوم الحصاد. فناموا مطمئنين بجوار الله لتحيا هناك حياتكم الروحية. طوبى لشهداء العلم والوطن!

(٦) الرابطة القومية

يضمنا وطنٌ تدنو بنا لغةٌ يُظِلُّنا علمٌ بالحق نرعاه

شهد العالم في تاريخ النهضة المصرية مشهدًا رائعًا من الارتباط القومي الذي جمع عنصري الأمة ومزج قلوبهما بعد سحابة صيف من التنافر أزعجت الأغراض السيئة، فما لبثت أن انقشعت من سماء مصر وعادت إلى القلوب موداتها. ولن ينخدع الشعب بالسراب مرةً أخرى، لأنه عرف أن حياته في ارتباطه، وقوته في اتحاده، ونصرته في اجتماع كلمته، فكان كذلك وكانت آية نهضة مصر وشعار الحياة فيها. وشاء الله أن تُبعث هذه الأمة فتمكن الاتحاد من قلوب أبنائها، وجعله عقيدةً راسخةً إلى الأبد ورابطةً لا يفصمها غير الموت، ورجع الأخ إلى أخيه ليبقي بيت أبيهما النيل وأمهما مصر عامرًا.



والدين دين الله في ملكوته والنيل للأقباط والإسلام

علم الشعب أن الدين عقيدة روحية، وأن الدين المعاملة، وأن الله لم يخلق الأديان لتفرق بين الناس، وأن المسجد معبد لله، وأن الكنيسة معبد لله، وأن الوطن للجميع؛ فاتخذوا دين عيسى ودين محمد عقيدة خاصة بالأفراد، وجعلوا دين الوطن عقيدةً يشترك فيها الجميع ... ودين المسجد والكنيسة يحض على الفضائل وعلى الحب وعلى المساواة وعلى نبذ الرذيلة وعلى الإخلاص في عبادة الله وعلى معاملة الناس بالمعروف وعدم الاعتداء على حقوقهم.

ودين الوطن يدعو للعلم والعمل والشهامة والإقدام والاتحاد والنصيحة والاقتصاد والدفاع عن الشرف وحب الخير للوطن والعمل لرفع شأنه وتشجيع مجده. ولقد ظهرت رابطة الشعب يوم تشييع جنازة الشهداء، فاشترك أبناء الوطن الواحد في المصاب العام، وسارت المواكب تتدفق لا يميز فيها بين الأخ وأخيه غير علم خاص يدل عليه. ولم يكن أشد أثراً في النفوس من مظهر الشيوخ والقساوسة، وقد ساروا مندمجين في بعضهما البعض، يرمزان للوحدة الوطنية والرابطة القومية كأنهما رقعة الشطرنج.

الصورة الرمزية للرابطة القومية

وفي هذه الصورة الرمزية لمقابر الشهداء تجد رمز الاتحاد في الحياة وفي الموت، فإنك تجد المسجد مجاورًا للكنيسة وتجد مقابر الشهداء الاثني عشر من مسلمين وأقباط ماثلة أمامك وعليها الألواح بأسمائهم وقد هبط ملك من السماء ليضع باقةً من الزهر على تلك المقابر، وهي رمز للرحمة الإلهية الشاملة التي اختص الله بها عباده الشهداء. وسيجد القارئ بين دفتي هذا الكتاب وصف مواكب الشهداء في الإسكندرية ومصر وطنطا ودمنهور وميت غمر، وصورهم، ولَمعة من تاريخ حياة كل منهم، وما أقيم لراثائهم من الحفلات، وما كتبتهم عنهم الصحف، وما نَظَّمَه في فاجعتهم الشعراء، ونَثَّرَه الكتَّاب؛ لتكون هذه الصرائف بمثابة ذكرى خالدة لجهاد مصر العلمي.

التمثال الرمزي لنهضة مصر لحضرة الأستاذ الفني الحفار الشهير ذائع الصيت محمود مختار أفندي



التمثال الرمزي لنهضة مصر.

وإنه ليبهج نفوسنا أن تكون أيامنا أيام نهضة قوية، وأيام إحياء لمفاخر أجدادنا وآثارهم الفنية الخالدة، وهذا الأستاذ النابغة المتقن محمود مختار أفندي قد حفر لأبي الهول تمثالاً جعله رمزًا خالداً لهذه النهضة المصرية المباركة، فراقنا أن نزين به صفحات

الكتاب وأن نضم إليه صورة حفارنا النابغة وأن نضيف إليه الأهرام ليكون رمزًا تامًا
لمفاخر مصر القديمة ومفاخر مصر الحديثة. والله المسئول أن يكلل مساعينا لخدمة
وطننا المحبوب بالنجاح، وأن يرزقنا الإخلاص وييسر لنا ما تعسر من أمورنا، إنه سميع
مجيب.

فرج سليمان فؤاد

بمصر

(٧) حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون: رئيس شرف حفلة
تشجيع جنازة شهداء العلم والغربة بالإسكندرية



حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا.

كأنما «عمر» من جنده القدرُ	أكلما ناب خطبٌ قيل «يا عمرُ»
كأنه الشمس للآفاق والقمرُ	وكل خطب دجا يبدو له «عمر»
فيرتوي من يديه البدو والحضرُ	البدو تسأله والمدن تأمله
آياته أنزلت في مدحه السورُ	لو كان في زمن القرآن إذ نزلت
لم يسقنا مثلها من كفه المطرُ	فلا عدمنّا هبات منه واكفة

إبراهيم سليمان

أحد علماء معهد الإسكندرية

عندما طَيرَ البرق خبر الكارثة الأليمة المحزنة التي اسْتُشهد فيها اثنا عشر طالباً مصرياً، قامت نخبة من أفاضل الأمة المصرية العاملين وقررت تشكيل لجنة لتشيع جنازة شهداء العلم والغربة في مدينة الإسكندرية، تحت رعاية صاحب السمو الجليل عمر طوسون باشا، وبرئاسة حضرة صاحب السعادة المفضل والشيخ الوقور أحمد يحيى باشا، وحضرة صاحب السعادة المفضل محمود باشا الديب وكيلاً، وعضوية حضرات أصحاب السعادة والعزة الأمجاد عبد الله باشا الغرياني، ومحمد بك فهمي الناضوري، وعبد العزيز بك الحديني، ومحمد بك الكلزة، والسيد بك مرسي، ومصطفى بك الخادم، ورمضان بك يوسف، وإبراهيم بك سيد أحمد، والدكتور أحمد عبد السلام، وسليمان أفندي أنطون، وعبد الحليم أفندي جميعي، وأحمد بك زكي، والدكتور ظيفل بك حسن، وفهمي بك غانم، وسعيد بك طليمات، وصادق أفندي أبو هيف؛ لأجل تنظيم وتنسيق جنازة شهداء العلم والغربة الطلبة المصريين المتوفّين في حادثة صدمة قطار سكة الحديد بين حدود إيطاليا والنمسا ببلدة «مونتبا». فإزاء هذه الهمم العالية والأزّيحجة لا يسعنا إلا أن نسدي حضرات أعضاء لجنة الإسكندرية الشكر الجم والثناء العظيم، وخصوصاً صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون، وحضرة صاحب السعادة الشيخ الوقور أحمد يحيى باشا. وسنذكر تشيع الجنازة وما قامت به هذه اللجنة المباركة بالتفصيل. واعتراً بما لصاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون من الأيادي البيضاء والمنن الغراء والمآثر الفيحاء على سكان وادي النيل؛ قد أتينا على لمحة من تاريخ حياته المجيد.

فذلكة تاريخية للأمير

لا نقصد من هذه اللوحة مدح الأمير فهو غني بصيته الذائع وشهرته الواسعة عن المدح والإطراء، ولكن اعترافاً بشيم الأمير وشمائله العالية نكتب ترجمته للأمة والبلاد ليكون لها من تاريخ حياته الحافل بجلائل الأعمال نبراسٌ يضيء لها طريق المجد الصحيح ومحبة الخير للخير. وفي اعتقادنا أن ترجمة الأمير أكبر درس للذين يرون في مجد الحسب والنسب كل الفخر، وفي المال الموروث عن الآباء والأجداد غنى عن كل منقبة تكسبهم مجداً جديداً وذكرًا حميداً.

بسطنا هذه المقدمة ليعرف الأمير قصدنا من ترجمته، وأنا لم نعد ما في نفسه، ولم نتجاوز غرضه، وليكون القارئ على بصيرة من الغاية التي حدث بنا إلى ذكر هذه السيرة الشريفة.

مولد الأمير

وُلد الأمير عمر بن طوسون بن سعيد بن محمد علي الكبير بالإسكندرية في ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٢م، وتوفي والده وهو في السنة الرابعة من عمره فكفلته جدته لأبيه خير كفالة، وعُني بتربيته هو وإخوته أجلّ عناية، فنبت نباتاً حسناً وشبَّ على الكمال خُلُقاً وخُلُقاً. ودرس مبادئ العلوم على أستاذة قصر والده إلى أن بلغ الحُلُم، فنزح إلى سويسرا ودرس فيها دراسةً مستفيضةً. ولما تخرج تاقَت نفسه إلى السياحة، فرحل إلى إنجلترا وفرنسا باحثاً مدققاً، معتبراً بما هنالك من تقدم اجتماعي وعلمي وصناعي وزراعي، ثم قفل إلى الديار المصرية حاملاً بين جنبه همةً عاليةً ونفساً ذكيةً، وقلباً ألعياً، وأدباً عبقرياً. وهو يجيد اللغة التركية، والعربية، والفرنسية، والإنجليزية، قراءةً وكتابةً، ويشارك في مختلف العلوم مشاركةً تدل على سمو مداركه، وسعة معارفه، وقد نال من الرتب والوسامات المصرية أسماها وأعلاها. واقتنر بإحدى كريمات الأمير حسن باشا ابن الخديو إسماعيل، فرزقه الله منها النجباء والنجيبات من البنين والبنات، وسعادتهم بتثقيفه وتعليمه لهم تتفق مع سعادة طالعهم وتبشر بأنهم سيطلعون نجوم سماء ويسطعون كواكب عَلاء. وللأمير وَلَعٌ بالفروسية وكل ما يؤدي إليها، فلذلك كانت دائماً جميع أندية الرياضة في البلاد ملحوظةً بجميل رعايته، كمضامير السباق في الديار المصرية فهو رئيسها منذ أمد بعيد، ومن أكبر المنشطّين لها، كما له وَلَعٌ قديم بالصيد والقنص جعله من أمهر

الرماء. واكتسب الأمير من وراء هذا الميل الغريزي فيه صحةً ونشاطاً، ينطقان بفوائد الرياضة بأفصح لسان، فهي لا تدخل في باب اللهو كما يظن عامة الشرقيين، بل هي إلى الجد أقرب لَعُودها على الصحة بأجلّ الفوائد، والصحة ملاك الحياة، وعليها ينبنى العلم والعمل، وما يعملُه الصحيح في يوم لا يقدر عليه السقيم في أيام، كما أن العقل السليم في الجسم السليم.

ومنذ بلغ أشده جعل نصب عينيه أن يقبض يوماً ما على زمام دائرته ويدير شئونها بنفسه، فانكبَّ على التمرن وكان من وقت لآخر يطوف مزارعه الواسعة، ويُنعم النظر في كتب الفلاحة، ويُعنى بالوقوف على أسرارها وأصولها العملية، كما يُعنى إذا رجع إلى ديوان دائرته بالشئون الإدارية والمالية، ولما كملت أهليته تولى أمره بنفسه، وقد أصبح الآن ممن يشار إليهم بالبنان في سَعَةِ الاطلاع على العلوم الزراعية والمعاملات المالية.

وعُهدت إلى إدارته بعدُ دائرتان من أكبر الدوائر، وهما دائرة الأمير حسن باشا وزوجه الأميرة خديجة هانم، ودائرة الأمير محمد إبراهيم، فتبرع بإدارة شئونهما غيرةً منه على مصالح المستحقين فيهما من أبناء أسرته الكريمة، وأبى أن يأخذ على ذلك أجراً، وطالما كلفه الطواف على مزارع الدائرتين ورعاية مصالحهما مالاً، فتأبى نفسه الكريمة إلا أن يكون على حسابه الخاص، فهو يضحي بالكثير من وقته وماله في سبيل منافع بعض أعضاء أسرته شأنه في محبة الخير وإسداء النصيحة إلى القريب والبعيد. وقد بلغت الدوائر الثلاث بحسن إدارته أفضل المبالغ، وغدا مركزها المالي ثابتاً على أقوى الدعائم، ونهضت بها عزمته نهضةً جعلتها في مقام رفيع.

ومن وقف على حياة الأمير عجب أشد العجب من انكبابه على العمل دون سآمة أو ملل، فهو مع أعمال الدوائر العظيمة لا ينقطع عن القراءة والدرس في مكتبته الحافلة بالنفائس، وله غرام باقتناء كتب التاريخ والوقوف على آثار الأقدمين، ولا يخلو الكثير من أيامه من النظر في شأن هام أو دعوة لاكتتاب أو رئاسة جمعية، كما لا يخلو شهر من سفره إلى ضياعه مرةً أو أكثر، وقد يبقى في الأرياف أسبوعاً لمشاركة الأعمال الجارية في أراضيه وأراضي الدائرتين الموكولتين إليه.

والأمير بعيد بفطرته السليمة وتربيته القويمة عما يغضب الله، وهو يكره الخمر ويكره شاربها، ويعاقب من يعلم أنه يشربها من موظفيه أشد العقاب. ويُجلُّ الإسلام وأوامره، وإيمانه بالله عظيم، واعتقاده فيه راسخ. يعجبه من الناس الصدق والإخلاص ويقربهم إليه أكثر مما يقربهم جاههم ومناصبهم، ومحبته للمصريين تعدل محبتهم

له، وهم في نظره سواء لا فرق بين مسلمهم ومسيحيهم. وكثير من موظفي دوائره من الأقباط، وبينهم من بلغوا مراكز سامية وتولوا المناصب العالية عنده، وفيهم سوريون وأجانب. وهو شرقي في أمياله، ويعتبر أن أكبر جزاء له من الأمة المصرية على التفاته السامي نحوها وعنايته التي يظهرها في ظروف مختلفة لصالحها؛ هو ذلك الحب الخالص الذي يتجلى لسموه في غدوّه ورواحه، وعند كل فرصة تمكنها من إظهار ما تكنه لشخصه المحبوب. وفي أيام المظاهرات الوطنية الكبرى كان يقف الجمع المحتشد تحت شرفات دائرته هاتفاً له داعياً، ولا ينصرف حتى يطل سموه ويحييهم، وكذلك حالهم معه في كل مشهد واحتفال.

بعض مآثر الأمير ومبراته

لا ينتظر القارئ أننا نحصي مبرات الأمير وأعماله العظيمة في هذه العجالة، وإنما سبيلنا في ذلك أن نلّمع إلى بعضها إلماعاً ونذكر ما حضرنا منها، ليقاس عليه ما غاب عنا، فكرمه الواسع لا تحضرنا عبارة تفي بالإفصاح عنه؛ فالحرب الطرابلسية إنما كانت مادتها ماله، ولو لم يسعفها بمعونته وجاهه ومبرته لما أمكن أهلها الدفاع عن حوزتهم بضعة أشهر، وكذلك حرب البلقان التي شبت نارها على أثر حرب طرابلس، فقد أقر فيها عين الدولة والملة، ورأس لجنة الإعانة في مصر فلبّته الأمة والتفت حوله، وألف اللجان في المديریات والبلدان، وكان يَسْتَنِدِي الأكَفَّ بنفسه ويخطب الخطب الرنانة في المشاهد الحفلة بالأمراء والأعيان فيجري النضار بين يديه سيلاً متدفقاً وهو يبعث به إلى الدولة تباطاً.

ولقد عرفت الدولة العثمانية مواقفه العظيمة لها في مواطن كثيرة خصوصاً في هاتين النازلتين وفي جمعية الهلال الأحمر، وأرادت أن تكافئه بالوسامات والرتب بل والولايات فأبى شاكرًا وقال إني لم أفعل غير الواجب وليس على الواجب جزاء. هذه اللمة قطرة من بحر جوده الفياض. وقد جئنا على ترجمة سموه بتفصيل وافٍ كافٍ وما قيل في سموه من القصائد الرنانة والخطب الغراء في كتابنا «الكز الثمين لعظماء المصريين»، لأننا توجنا الجزء الثاني من هذا الكتاب بتاريخ حياته العاطر أدامه الله مدى الدهر عضداً للشعب المصري الكريم.

نذكرى شهداء العلم والغربة

بقيت لنا كنزاً ثميناً وعزّةً تباهي بها أجيالنا بعد أجيال

(٨) ترجمة حضرة صاحب السعادة الوقور أحمد يحيى باشا
رئيس حفلة تشييع الجنازة بالإسكندرية لشهداء العلم والغربة



صاحب السعادة أحمد يحيى باشا من أعيان الإسكندرية.

عظماء الرجال هم الأمثلة الحية لمعاني الإنسانية.
فالشجاعة، والحكمة، والتؤدة، والسداد في الرأي، والنبوغ في العمل، والتفاني في
خدمة الوطن، وحب الخير لأبناء أمتهم؛ كل هذه المعاني الإنسانية وهذه المعاني السامية
قد نراها مكبرةً مجسمةً حتى نكاد نبصرها بالعين ونلمسها باليد في عظماء الرجال.
تلك المعاني الشريفة وتلك الصفات الباهرة تتجلى في شخص حضرة صاحب
السعادة الجليل أحمد يحيى باشا، رئيس حفلة تشييع جنازة شهداء العلم والغربة

بمدينة الإسكندرية. فحياة مثله من عظماء الأمة يجب أن تكون أمثلة صالحة لكل من يريد أن يعبر سبل الحياة بنجاح. واعترافاً بفضل هؤلاء الرجال نعطر صفحات هذا الكتاب بلمحة من تواريخهم بالإيجاز حسب ما يناسب المقام، ومن أراد أن يقف على جلائل أعمالهم فعليه أن يتصفحها في كتابنا «الكنز الثمين لعظماء المصريين»، بالجزء الثاني الذي سيظهر إن شاء الله قريباً في عالم المطبوعات.

مولده

وُلد شيخ الوطنية الجليل أحمد يحيى باشا في يوم الجمعة ٥ محرم سنة ١٢٦٠هـ، من والدين شريفين مشهورين بالمدح الأثيل والأصل النبيل والعز المنيع في مدينة الإسكندرية. وهو ابن السيد محمد يحيى ابن الحاج مصطفى يحيى الذي كان قاضياً بمحكمة الإسكندرية الشرعية، ومعروف بحسن استقامته وجميل نزاهته. وقد ورث الفضل عن أسلافه أباً عن جد، وكانوا جميعاً من حملة الشريعة السمحاء، مشهورين بالتقوى والصلاح والأخلاق الفاضلة والشمائل الغراء.

وكان المرحوم والده باشمهندساً للترسانة أيام المغفور له «محمد علي باشا الكبير»، وهو من تلاميذ الإرسالية الأولى التي كان بعث بها محمد علي إلى أوروبا، والتي كانت مؤلفة من خمسة من أبناء وجهاء القطر، اثنين من الإسكندرية أحدهما السيد محمد يحيى، وثلاثة من القاهرة. وكان والد صاحب الترجمة قد لُقنه اللغة الطليانية فضلاً عن العلوم الابتدائية، فساعدته ذلك على سرعة تعلم اللغة الفرنسية في فرنسا، حيث كان نصيبه تلقي العلوم البحرية بها في مدينة «طولون»، فلما عاد إلى وطنه — كما تعود الوديعة لصاحبها سالمة — أُلحق بالترسانة، ولم يزل يَرْقَى فيها حتى بلغ درجة باشمهندس في الترسانة، فلما انتقل المرحوم «محمد علي باشا» إلى رحمة الله وتغيرت حالة الترسانة تركها واشتغل بالتجارة.

حياته الدراسية

تلقى صاحب الترجمة أحمد يحيى باشا العلوم الأولية بمكتب الشيخ محمد أبي النصر بالإسكندرية، وحفظ على شيخه المذكور القرآن بتمامه وجوّده تجويداً حسناً، وأتقن علم الحساب. فلما بلغ الثانية عشرة من عمره اشتغل مع المرحوم والده في محل تجارته

فأَتَقَنَ علم الحساب التجاري، واستنجه والده ففتح له محلاً تجارياً في سنة ١٢٧٥هـ لتجارة الأجواخ والحرائر والأصواف وما شاكل ذلك. ولم يمضِ على اشتغاله بمحل تجارة والده سوى تسع سنوات وتوفي والده، فانفصل صاحب الترجمة عن إخوته وانفرد بمحل تجارته على حدة.

شهرته التجارية

ولما اشتغل بإدارة محل تجارته على حدة كثرت أعماله واتسعت دائرة علاقاته، وعُرف بين الناس بالاستقامة والنشاط والمقدرة والكفاءة. ونبغ في سائر فروع الحياة العملية، لأن الله قد مَنَّ عليه بعقل راجح وجَنَان ثابت حتى وثقت به دوائر الحكومة، فكان يُنتدب لعضوية المجالس بالمحاكم المختلطة والمجالس الحسبية ومراجعة عوائد الأملاك ونحوها مع استمراره على مباشرة أشغاله التجارية الواسعة. وما زال كذلك حتى اعتزل التجارة وتفرغ لأملاكه الواسعة بالمدينة، ولكنه استمر مثابراً على مباشرة الشؤون العمومية، فنال فيها ثقة مواطنيه لما له من الخبرة وقوة العارضة والمقدرة على خدمة مواطنيه بما يذكره له التاريخ أمد الدهر. وقد انْتُخِبَ عضواً بمجلس بلدي الإسكندرية، ومجلس شورى القوانين، وانْتُخِبَ رئيساً لجمعية العروة الوثقى خلفاً لصاحب الدولة محمد سعيد باشا. واعتنى كل الاعتناء بتربية نجليه الكريمين حضرتي صاحبي السعادة أمين يحيى باشا وعبد الفتاح يحيى باشا وكيل وزارة الحقانية، وهذه أكبر خدمة للأمة التي يقوم سعادتهما بخدمتها وينسجان على منوال أبيهما في عمل الخير والمعروف، و«من شابه أباه فما ظلم».

وقد يرى القارئ الكريم هذه الأعمال بالتفصيل في الجزء الثاني من كتابنا «الكنز الثمين لعظماء المصريين»، وهذه لمحة وجيزة ذكرناها للأمة من تاريخ حياته المجيد.

اهتمامه بحفلة تشييع جنازة شهداء العلم والغربة

وقد اهتم حضرة صاحب الترجمة بتنسيق وترتيب حفلة تشييع جنازة شهداء العلم والغربة في مدينة الإسكندرية اهتماماً عظيماً، حتى كان يُخَيَّلُ للإنسان أن المدينة وشوارعها ومنازلها لابسة ثوب الحداد على أولئك الشهداء الأطهار البررة. وسار الموكب بين التَّجَلُّة والاحترام كأن على رءوس المشيعين الطير، وذلك بفضل همة صاحب السمو

تمهيد

الأمير الجليل عمر طوسون باشا وصاحب الترجمة وحضرات أعضاء لجنة الاحتفال.
وسترى تفصيل تشييع هذه الجنازة في غير هذا المكان.

تواريخ حياة الشهداء

لقد كانت حياة الشهداء كأعمار الزهر أو كالفجر البهيج، وكانوا كالأنجم التي لاحت في سمائها، وما هي إلا أن تَلَأَلَتْ فأضاءت ما حولها فهوت في ظلمات الأبدية. وقد جاء أولئك الشهداء إلى العالم ليعطروا نواحيه بتلك الأيام القلائل التي أقاموها بيننا ثم استردتهم السماء وتركت أجسادهم في ثرى مصر لتعطر بهم موقف الحشر في يوم البعث العظيم. بيد أن تلك الأعمار القصيرة لا تخلو من حسنة تُذكر فتؤثر من ناحية الاجتهاد في تحصيل الدرس ومن ناحية مكارم الأخلاق، ولهذا نسوق هنا لمعة من تاريخ كل من شهدائنا ليكون مثلاً صالحاً لمن يطلع عليه من الشباب المصري المبارك، وليكون أيضاً تذكيراً خالداً لأبنائنا الزاهبين.

(١) ترجمة أحمد طلعت أسعد

(١-١) مولده

وُلِدَ الشاب الذكي المرحوم أحمد طلعت أسعد بمدينة الزقازيق في ١١ أغسطس سنة ١٩٠٢م، وهو نجل المرحوم محمد بك أسعد الذي كان مأموراً بالدائرة السَّيِّئَةِ. وتُوفِّي والده وهو في سن الحادية عشرة، فتكفل بتربيته حضرة عمه صاحب العزة القائم مقام أحمد بك أسعد وتبناه هو وإخوته الثلاثة، وكان الفقيد أكبرهم سنّاً وأشغفهم بطلب العلم والتطلع إلى الآمال الكبيرة، وتوسم مربيه فيه النجابة فلم يقصر في الإنفاق عليه والعناية بتربيته وتهذيبه.



المرحوم أحمد طلعت أسعد من القاهرة.

(٢-١) دراسته

عندما بلغ الفقيه السن التي تؤهله لتلقي مبادئ الدراسة أدخله والده في سلك تلاميذ المدرسة المحمدية الأميرية، فكان مثال الفطنة والنجابة والنشاط، وقد لبث بها حتى حاز شهادة الدراسة الابتدائية. ثم التحق بمدرسة الإلهامية الثانوية، فكان موضع إعجاب أساتذتها واحترامهم، وكانوا يظهرون له شيئاً من العطف ويتنبئون له بالمستقبل الزاهر. وكان على جانب عظيم من الأخلاق الطيبة والآداب العائلية العالية، وكان شفوفاً بأشقائه شديد الإقبال عليهم بما يملأ نفوسهم مسرةً. وكان كل همه أن يكون ذا مركز في الهيئة الاجتماعية يمكّنه من خدمة وطنه ومن العناية بإخوته.

وبعد امتحانه في شهادة الكفاءة رغب في الالتحاق بمدرسة المحاسبة والتجارة المتوسطة، ولم يتح له نشاطه إتمام دراسته بها لأنه كان يتوق من العلم إلى ما ينفع غلته ويشفي نفسه الطموح بالمجد الشغوف بالعلاء التواقة إلى موارد العلم العذبة فانضم إلى الطلبة المسافرين إلى عاصمة الألمان للدراسة، ولم يسعه الأجل فاستشهد قبل أن يصل

إلى بغيته ولم يكن يبلغ من العمر أكثر من سبعة عشر ربيعاً، وقد ترك إخوته يندبون شبابه، ومربييه يندب نجابته وذكاءه، ووطنه يندب مستقبله ويبكي منه شاباً لو عاش لكان رجلاً نافعاً ووطنياً مخلصاً، فرحمه الله رحمةً واسعةً وأنزله منازل الأبرار الأتقياء وعوّض إخوته ومربييه فيه خيراً!

(٢) ترجمة علي حسن البكري

(١-٢) مولده

وُلد شهيد الهمة والإقدام فقيده الشبيبة المصرية علي حسن البكري في اليوم السابع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٩٩ بمدينة دمياط، وهو نجل صاحب العزة الوجيه حسن بك البكري نجل المرحوم نعمان بك البكري سر تجار مدينة دمياط. ونشأ في مهد العز والرفاهية، متحلياً بالآداب العائلية العالية والأخلاق الفاضلة اللائقة بشرف بيته الكريم ونسبه الطاهر.

(٢-٢) دراسته

شب الفقيد على حب الدرس والمذاكرة، وما كاد يبلغ السابعة من سني حياته حتى أدخله والده مدرسة الكتبي الأولى ثم مدرسة دمياط الأميرية، فكان لا يألو جهداً في مسابقة إخوانه والتفوق عليهم في الترتيب المدرسي حتى نال شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٤م وكان في أوائل الناجحين. ثم سافر إلى الإسكندرية فالتحق بالمدرسة العباسية الثانوية، ثم انتقل طلاب تلك المدرسة أيام الحرب العامة بأمر وزارة المعارف إلى مدرسة طنطا الثانوية ومنها حصل على شهادة الكفاءة سنة ١٩١٦م، ولبث مستمراً على إتمام دراسته بها حتى حاز شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩١٩م. وكان يميل إلى تلقي علم الطب ليخفف ويلات الإنسانية، ولكنه لم يوفق للالتحاق بمدرسة الطب المصرية للحالة الاستثنائية المتبعة في قبول الطلاب فيها، ولذلك عول على دخول مدرسة الهندسة مخالفاً بذلك ميله الطبيعي لدراسة العلوم الطبية.

ولما سهّل الله طريق السفر إلى بلاد أوروبا عاود الفقيد غرامه بدراسة الطب، واهتاجه للهجرة إلى ربوع العلم في بلاد الألمان تهافت الطلبة على السفر وعُرض عليه الاشتغال بالتجارة ولكنه أصر على طلب العلم فلم يسع والده إلا تحقيق رغباته وإعداد ما يلزم لرحلته من مال ومتاع.



المرحوم علي حسن أفندي البكري من دمياط.

وقد أُصيب — رحمه الله — بمرض عضال قبل سفره بأيام قلائل، فخشي أن يتشبث والده بمنعه عن السفر ويتخذ من مرضه ذريعة لذلك، فتصنع العافية وجالد مرضه بصبر يدل على صدق عزمته وقوة إرادته، ولم يعلم بمرضه غير طبيبه الذي كان يعوده ويقوم بمداواته.

وسافر الفقيد مودّعاً من أهله وأصدقائه، واستقل الباخرة حلوان ميماً تريستا، وما كاد يصل نبأ وصوله وتنتهي الألسن من حمد الله على سلامته حتى جاء خبر النعي الذي أصمّ الأذان وروّع القلوب وأذهل النفوس.

وما كاد يُذاع الخبر في القاهرة حتى أُقيم المأتم في منزل والده الأسيف بالمنيرة، وتوافد عظماء البلد إلى تعزيتة. وجاء صاحب العزة محمود بك رسمي محافظ دمياط، وعدد كبير من أعيانها ووجهائها خصيصاً لتقديم مراسم التعزية، وأُنابت لجنة الوفد المركزية الأستاذ محمد بك يوسف المحامي لتخفيف وقع المصيبة على نفس ذلك الوالد المحزون.

(٣-٢) حفلة تأبين الفقيد بمدينة دمياط

رأى أهالي مدينة دمياط تخفيفاً لمصاب عائلة الفقيد وقياماً بحق مواطنهم عليهم أن يقيموا حفلة رثاء عامة له برئاسة سعادة المحافظ، وحددوا لذلك يوم الجمعة ١٠ أبريل سنة ١٩٢٠م بمسجد الأستاذ البدري، وما كاد يوافي الموعد المضروب حتى غُصَّ المسجد بأعيان البلد وكبار موظفيها وتجارها، وكان في مقدمتهم سعادة المحافظ وسعادة عبد السلام بك العلالي عضو الجمعية التشريعية، وفضيلة القاضي الشرعي وغيرهم، وكانت صورة الفقيد مكبرة وموضوعة في صدر المكان.

وافْتُتِحَت الحفلة بتلاوة أي الذكر الحكيم، وكان الجميع كأن على رؤوسهم الطير من الخشوع لجلال الحزن ورهبة الموت. ثم نهض الطالب الذكي محمد أفندي إسماعيل خفاجي، فألقى كلمة أفاض فيها القول على همة أولئك الشبان وإقدامهم ومحبتهم للعلم، وترحم عليهم. ثم تلاه الأستاذ محمد بك يوسف المحامي والعضو بلجنة الوفد المركزية، فارتجل خطاباً مؤثراً أبَّن فيه الفقيد وأظهر فداحة مصاب مصر في أبنائها الشهداء. وقام بعده الأديب عزيز أفندي يوسف فنسج على منواله، ثم تلاه الكاتب الشاعر الأديب عباس أفندي شوشة فألقى هذه الخطبة الشائقة:

مراثي الشعراء والكتاب في حفلة تأبين المرحوم علي حسن بكري

ما للسماء أراها الآن قائمةً كما عهدت وما للأرض لم تمد

«ليت شعري، ألم يأتها ذلك النبا العظيم الذي أدمى المقل وأذاب المهج، ذلك النبا الذي صدع الأفئدة، وفَتَّت الأكباد ومزق المرائر، ذلك النبا الذي اهتزت له أركان العالم، وضجت له الأفلاك في الأفلاك، نبأ كواكب مصر المنثرة، ونجومها المنكدة، وبدورها الأقلة في ليالي التمام، نبأ ذلك الجيش العرمرم الذي تجمع من زهر شباب الكنانة الناضر ليفتح لها مغاليق العلوم. تجمع أولئك الأبطال ولا أغالي إذا عدتهم جيشاً جرازاً، فإني أعد كل فرد منهم أمةً بأسرها في شخص. اجتمعوا وقائدهم الحزم، وعدتهم العزم، وذخيرتهم حب بلادهم، ثم ساروا ووجهتهم أمور ثلاثة: تحصيل العلم، وخدمة بلادهم بما يحصلون منه، ثم تخليد ذكر يحيون به إلى الأبد، والذكر عمر لو علمت طويل! ولكن جيش المنية ربض لهم في سبيلهم، ثم أخذهم على غرة، وهنا انعكست أمامهم الآية، فبلغوا

الغاية الأخيرة التي ينشدونها قبل الغاية الأولى التي خرجوا من أجلها، بلغوا ما كانوا يرجون لأنفسهم من الذكر الخالد وآيات الإعظام التي أصبحت منقوشة في صفحات كل فؤاد، ينقلها الخلف عن السلف ما دامت السموات والأرض. ولم يبلغوا ما أرادوا من نقل دار العلوم إلى بلادهم وتحليتها بها، فقصوا وفي أنفسهم من ذلك لوعة، وخلفوا مصرهم وفي قلبها عليهم ألف حسرة، قضوا وهم في ميدان الجهاد بعيدين عن أهلهم، بعيدين عن أبيهم النيل وأمهم مصر التي حبتهم وأحبوها حتى كانوا يطلبون لها الحياة وهم يجودون بالنفس الأخير! بالله ماذا كان على المنية لو أمهلتكم أيها الشهداء، حتى تبلغوا أربكم وتبلغ مصر بكم أربها؟! ولكن هكذا قُضي لكم وقضاء الله إذا جاء لا يُرد، ولا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، ففي ذمة الله شبابكم الغض ونفوسكم الكريمة.

وإني إذا عزيت عنكم الأمة جمعاء أرى من واجبي في موقعي هذا أن أخص أبا علي، مع بقية الدميّاطيين، بتعزية مفردة عن ذلك الشاب الكريم النّبعة، الوسيم الطلعة، العريق النسب، الوافر الأدب، الطيب الأعراق، الرضي الأخلاق، المرحوم «علي حسن البكري»، وإن كانت الرزية ليست خاصة بهم، والفاجعة غير قاصرة عليهم، بل هي مصيبة الأمة قد أصابت كل قلب فيها وليس لنا إلا الصبر وملاقة الخطوب بقلوب من الصخر، ولا تزدنا الكارثات إلا مضيئاً في سبيلنا لتحقيق مآربنا، ولا نضع أعمارنا إلا فيما خُلقنا له من العمل الصالح.

ثم أعقبها بهذه القصيدة العصماء:

أرى الأعمار ما طالت قصارا	وغول الدهر إما قرّ ثارا
وما من مهجة إلا ستسقى	كئوس الموت خلّاً أو عقارا
فلا يغرك يومٌ مر صفواً	فقد يولييك في غده تبارا
فما طير علا إلا تردى	ولا نجم بدا إلا توارى
وما يدري امرؤ أيان يلقي	منيته أليلاً أم نهارا
وشيخاً سوف يقضي أم فتياً	وفي حلب سيدفن أم بخارى
سلوا الغرباء يوم عدت عليهم	عوادي الدهر غدرًا واقتسارا
أنذرهم بمصرعهم نذيرٌ	وهل علموا لمهلكهم أمارا
لعمري كلكم سيقول كلا	ولو علموه ما هجروا الديارا
ولا أزجوا على الأمواه فلگا	ولا ركبوا على أرض قطارا

ولكن هم إلى العلياء هموا
وكم قوم بنور العلم ساروا
فخلّ الجهل يا ابن النيل إني
ولا تركز إلى خدع الأمانى
وعهدي بابن هذا النيل فذا
وأن بنيه نحو المجد جدّوا
فجابوا للعلا هذي الفيافي
فخانهم جدود الحظ فيما
وصدّتهم عن القصد الليالي
لحاك الله يا صرف الليالي
أيا ركبًا ديار العلم حجوا
ويا تُجَرّ العلوم وعاشقيها
لعمر أبي لقد نلتهم فخارا
وأنتم في المآقي قد نزلتم
وفيكُم خانت الأيام مصرًا
فحال النيل بعدكم أجًا
ولم نملك عن البلوى عزاء
وكم حاولتُ بعدكم التآسي
وكم ترجو بيّ الأيام سوءًا
وإني بين أجفاني وقلبي
وتعشّى إن دجا الليل العشايا
وما لي غير دعوى الله ربي
يعوض مصر عنكم كل خير

وما أمنوا من الدهر العثارا
وبتنا في جهالتنا حيارى
رأيت رضاك بالجهل انتحارًا
فقد كان الركون لهن عارًا
إذا ما رام أمرًا لا يُجارى
وراجي المجد لا يخشى الخطارا
وخاضوا للعلا تلك الغمارا
رجوه وعوجلوا زُغبًا صغارا
فلم يلقوا بها إلا بوارا
فقد خيبت آمالًا كبارا
فما حجًا قضوه ولا اعتمارا
أربحًا قد لقيتم أم خسارا؟
وذكرًا فوق هام النجم سارا
وخليتم منازلنا قفارا
ولم تحفظ لها فيكم ذمارا
وها جناته عادت صحارى
ولم نستطع على الخطب اصطبارة
وأنى ذاك؟ إن العزم خارا
كأنّ لديّ للأيام ثارًا
غرقت بلجةً وصليت نارًا
وكدتُ ببيلوتي أعشى نهارًا
طوال الدهر طوعًا واختيارًا
فقد كنتم من الدنيا خيارًا

ثم قام فضيلة قاضي دمياط الشرعي فألقى كلمة كانت بلسماً للقلوب الكليمة
الموجعة، ونهض الأديب حامد أفندي الشيال فارتجل خطاباً ناجى فيه أرواح الشهداء
ورثى فيه صديقه البكري رثاء الوفي الأمين على المودة.

وقام المرحوم الأستاذ الشيخ محمد محمد منيعم فألقى هذه القصيدة التي تفيض دموعاً، وتسيل حزناً:

خطوا لهم بين الكواكب مضجعا	فالقلب بات من الكوارث مترعا
خرجوا جميعا والمنية في المنى	فرمى الردى في جمعهم فتصدعا
راحوا وأنصار البلاد تزفهم	وأتوا تزفهم الملائك خشعا
ركبوا السفينة فازدهت بجمالهم	واليوم يغشاها الجلال مروعا
ظمئوا إلى ورد المعارف والعلا	فغدوا على ورد المنية شرعا
هجرنا بلادهم إلى الأرض التي	يبغون حكمتها فكانت مصرعا
عهدي بهم أسد الصدام فما لهم	صُدموا فكانوا للمننية مرتعا؟!
ويح الكنانة ما أشد خطوبها	وأجل حادثها الأليم وأفظعا!
ويح الكنانة ما دهى أقمارها	حتى هوت والأفق بات مفزعا؟!
ويح الكنانة ما دهى أزهارها	حتى ذوت فنعى الشيبية من نعى؟!
خطب أجل عدا على فتيانها	فغدا بهم أمل الحياة مضيعا
خرجوا يرجون العلا وجلالها	فدعاهم رب العلا فيمن دعا
ما خلت قبل اليوم قبراً ضيقاً	يحيوي الكرامة والشهامة أجمعا
يا معشر الشهداء حيوا فتيّة	سبقوا إلى الحسنى وسنوا المهيعا
يا معشر الشهداء خُلد ذكركم	والموت لا ينفك فينا مُشرعا

وتبعه الأستاذ الشيخ إبراهيم منصف فألقى هذه القصيدة:

أعزّي رفاقي وأنعي الشبابا	وأطلب صبرا يوازي المصابا
مصاب شديد أثار الأسى	بكل فؤاد وأزكى اللُهابا
فلا كان يوم أتاننا به النـ	عِيّ ويا ليت ذا القول خابا!
تحقق صوت النعيّ وراح الشـ	باب اغتيالاً ومات اغترابا
ففي رحمة الله قوم تأخوا	حياة وفي الموت كانوا صحابا
ضحية نيل العلوم قضاوا	فأبكوا العلوم وأدموا الكتابا
وكانوا يرجون نيل المعالي	لخدمة قطر يخاف اغتصابا

بدمياط كانت لهم طلعة
وكانوا كإخوانهم عدّة
«أودين»^١ عتاباً وهل يجدي نفعا
نفضت يديك ولم ترع وفداً
أقام الحمام له فيك بهواً
ومن لم ينله الرّدَى فيك أضحى
أجبت «أودين» رجاء البلاد
ولكن ثناء لأهلك يَهْوَى
بني مصر لا تجزعوا وابتغوا
إلهي نرجو شفاء العليل

تفوق الشمس وتعلو الشهاباً
إذا ما العدو رآهم لذاباً
ملأك إذ ما أردت العتاباً
كريمًا ببرلين يبغي الذهاباً
فسيحاً وأرخى عليه حجاباً
عليلاً طريحاً يقاس العذاباً
فبدلت حلو المعيشة صاباً؟
على حسن عطف أتوه احتساباً
نوال العلوم تحوزوا الثواباً
ورحمة قوم تَوَلَّوْا شباباً

وقام حضرة محمد أفندي الأسمر وتلا القصيدة الآتية:

أذاب القلوب وأدمى العيو
وعز العزاء وضاق الفضا
شباب مضى فقضى نحبه
أفي كل يوم لنا حادث
صبرنا على سلبه في الحمى
رويدك يا غرب رفقا بنا
فَجَعْتُ الكنانة في خيرها
وأوديت بالموت أولادها
همو سافروا طالبين العلا
وراموا الثريا لهم مسكنًا
وهم جردوا سيف آرائهم
نودعهم حينما سافروا

ن وأبكى الأسود مصاب جلل
ء بنار الصدور ودمع المقل
غريبًا قتيلاً كبير الأمل
من الغرب تهتز منه القل
فمد يديه لسلب الأجل
حنانك أنا الرجال الأول
وخير البلاد شباب العمل
فأمست تئن وتشكو التكل
إلى أمهم فدهتها العلل
فراحوا وكل بقبر نزل
ولكن أبى الله إلا القل
وداعاً يضم المنى والوجل

^١ بلدة إيطالية.

أحلوان^٢ عندك آمالنا
 أحلوان كوني ذلولاً لهم
 أحلوان سيري بهم مغرباً
 وإلا فحسبك من فكرهم
 وإن شئت عندك أنفاسهم
 وشقي عُباب الخضم بهم
 سيهديك منهم بجنح الدجى
 فطارت بغير جناح لها
 وسرعان ما غاب جثمانها
 فما هي إلا ليالٍ مضت
 نجواً من غوائل موج البحا
 وماتوا وهم فوق ميدانهم
 رعى الله منهم يراعاً مضى
 إذا سار يوماً على طرسه
 تصرفه راحة وبها
 وما راعنا غير أم رء
 تنادي وتنشد بدرًا هوى
 تكاد تجنّ لفقد ابنها
 وما كوكب صار من مشرق
 وكم قمر تم ريعانه
 فضجت لهم مصرُ جمعاؤها
 فبين صراخ وبين أنـ

وفوقك نُحِر البلاد انتقل
 تنالي من العز ما لم يُنَلْ
 وحسبك من قلبهم ما اشتعل
 توقد جمر ففيه البلل
 تثور كفيزوف لما افتعل
 وإياك إياك بعض الزلل
 وجوه كضوءٍ بأعلى الجبل
 على الماء بين الجوى والجذل
 ففي ذمة الله يا من رحل
 وخطب المنون عليهم هطل
 ر فكان الحمام لهم في عجل
 فكلُّ شهيد وكلُّ بطل
 ولم يمض منه انزعاج الأسل
 رأيت الهلال ببرج الحمل
 أغاظ الثريا وأبكى زحل
 وم تشقُّ الفؤاد بشقِّ الحُلل
 دهاه الخسوف فهل من جيل؟
 أيدري الحمام بما قد فعل؟
 إلى مغرب الأرض إلا أفل
 أتاه المَحاقُ غداة اكتمل
 وشاب الصغير فكيف اكتهل؟
 بين وبين لهيب ودمع همل

* * *

أحلوان جئت بشباننا
 وكانوا صروحاً فعادوا طلل

^٢ يقصد الباخرة حلوان.

قَفَلْتِ بِهِمْ جَثًّا نَوْمًا فَأَيْنَ النِّشَاطُ وَأَيْنَ الْجَدَلُ؟
وَأَيْنَ نَدَاؤُهُمْ فِي الْبَلَا دِإِلَى أَنْ رَأَيْنَا الْعَدُوَّ اخْتَبَلُ
تَوَى كُلُّ ذَلِكَ تَحْتَ الثَّرَى وَذَلِكَ كَنْزٌ عَزِيزُ الْمَثَلُ

دمياط

محمد الأسمر

وتلاهم الكثيرون من الخطباء. وخُتِمت الحفلة بتلاوة القرآن الكريم، وانصرف الحاضرون يستمطرون شآبيب الرحمة على شهداء العلم ويسألون الله أن يُلْهِمَ والد فقيد دمياط جميل الصبر.

(٢-٤) الاحتفال بتشييع جنازة الفقيد في مدينة دمياط

كان يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٢٠ يومًا مشهودًا بدمياط، لم ترَ مثله مع كثرة ما مر بها من الحوادث أيام الحروب الصليبية وغيرها، فقد وصلت الجثة إلى محطتها الساعة الواحدة بعد الظهر وحُمِلت إلى مكان الاستراحة، وكان النعش مجلًا بأكاليل الزهر التي وضعت عليه عند تشييع الجثث بالإسكندرية، وكان مغطًى بالعلم المصري، وموسومًا بشارات الحداد.

وكانت مدينة دمياط في ذلك اليوم مغلقة الحوانيت، والأعلام المنكّسة مرفوعة في كل مكان، وما وافت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى احتشدت الجماهير حول منزل عبد الله بك البكري الذي تبتدئ منه الجنازة، وعند الساعة الرابعة كان تابوت الجثة قد نُقِلَ إلى الشاطئ الثاني من النيل، وتحرك الموكب الرهيب في صمت عميق لم تكن تسمع خلاله غير نغمات الموسيقى المحزنة وزفرات المشيعين. وكان نظام الموكب يسير على هذا الترتيب: الموسيقى - عساكر البوليس - جنود خفر السواحل - الخفراء - موسيقى دمياط - تلميذات مدرستي دمياط الأميرية والراهبات - تلاميذ المدرسة الأميرية - نعش الفقيد محمولًا على الأعناق ومحاطًا بالسواري - والد الفقيد وعائلته - طلبة العلم - رجال الدين والرؤساء الروحانيون - سعادة المحافظ نائبًا عن عظمة السلطان - كبار الموظفين - عضو الجمعية التشريعية - عضو لجنة الوفد بدمياط - وفد الإسكندرية - رؤساء المصالح - أعضاء المجلس البلدي - رجال القضاء والمحامون - الأطباء - نظار المدارس ومعلموها - الأعيان والتجار - النقابات بأعلامها. وكان الزحام بالغًا حده والطرقات غاصّة بالنساء والرجال.

وسار المشهد على هذا الترتيب: من منزل عبد الله بك مخترقاً شارع البحر - شارع الخمس - شارع مدرسة البنات - الشارع الأعظم - شارع الحدادين - شارع سوق الجبنة - شارع القرافة، ومنه إلى مقبرة عائلة الفقيد. وكان هناك سرادق فخم معدّ لاستقبال المشيعين فانعطفوا عليه، وهناك وقف الأستاذ محمد بك يوسف المحامي فأبّين الفقيد وشكر المشيعين بالنيابة عن أسرته واختص منهم وفد الإسكندرية. ثم وقف شاعر دمياط الأستاذ علي أفندي علي العزبي فألقى هذه القصيدة العصماء فاستمطر الدموع وأبكى العيون، وهي:

أصاب الكنانة خطب جَلَلْ	أذاب الكُبود وأجرى المقلْ
إرادة محتكمٍ قاهرٍ	وما شاء رب البرايا فعلْ
ومهما احتملنا من النائبات	فخطب الشبيبة لا يُحتمَلْ
بدور خبت عند إشراقها	زهور ذَوَتْ في ربيع الأجلْ
وحزمٌ توثَّب حتى كَبَا	وعزمٌ تحفَز حتى قُتِلْ
غواشٍ توالَت بلون الدُّجَى	على الشعب مُطِيقَة كالظُلُلْ
قضاء يهُبُّ وذُلٌّ يدبُّ	ونار تشبُّ وسيف يُسلْ
وتُؤوي السجون الأمين الأعز	وتحوي العروش الخئون الأذلْ
ومهما فللنا جيوش العدا	ثباتاً فجيش الردى لا يُفلْ
فيا لهفَ نفسي على أنفيس	أغار عليها الردى في عجلْ
ويا لهفَ نفسي على أوجه	تخطَّفها الهول بين الجبلْ
فهذا تردى وعن مصره	لدى غمرات الردى ما غفلْ
وهذا يردد جرحي أليم	ولكن متى قيل مصر اندملْ
هنا جثة وهنا أنَّة	لها احمرَّ وجه الثرى من خجلْ

* * *

بدور الكنانة إن الدجى	يرُوع العيون إذا ما انسدلْ
حجبتكم فأقبل ذاك الظلام	يهيج الأسى ويهيج العللْ
أضل العقول الأسى أم هدى	وجار علينا القضا أم عدلْ
تغربتمو في طلاب العلوم	وما العلم إلا دليل العملْ

رحلتُم وقمتُم بأكبادنا	فقلب أقام وجسم رحل
ولجَّ بكم أملٌ للعلا	فكان الردى من مطايا الأمل
وربَّ فتى نائم كالحسام	ورب فتى قائم كالطَّل
وحثُّ الضراغم بين الوهاد	وحثف الكواعب بين الكلل
هنيئًا لكم بالحياة التي	بها اعتزَّ شعبكم واحتفل
كأنِّي به سار في موكب	يضمُّ الملايين يوم استقل
فخارًا بكم وبما نلتمو	من الدرجات التي لم تُنل
فمجدكمو للنجوم اعتلى	وذكركم بالخلود اتصل
هنيئًا فأبطالهم أصبحوا	بأقدامكم يضربون المثل
وبدلتمو بحياة العلوم	حياة الخلود ونعم البدل
وهذي الحياة جزاء النشاط	وموتُ الشعور جزاء الكسل
وتلك الكرامة عقبى المجد	وتلك الشهادة عقبى البطل

* * *

فيا كوكبًا لاح في أفقه	وما كاد يشرق حتى أفل
قرارًا برمسك جم النعيم	وللمس خير من المعتقل
كأنِّي بقبرك من نوره	ملاك بحسن الشهيد اشتمل
كأنِّي به وجنة أو جبين	تحياه أفواهنا بالقبل
أنار الطُروس رثاء دجى	وأعلى الرءوس قضاء نزل
وما ذاك شعر تكلفته	ولكنه مدمع مرتجل
«علي» وأنت الجميل خلال	ومن ليس الحسن خير الحل
عليك جرى حسرة «مدمع»	تلهب في الجفن حتى اشتعل
وديمياط تكلى لما نابها	وقد رزئت في الأبرر الأجل
شباب تجمل بالصالحات	شباب وقاه الإله الزلل

* * *

ويا فتية النيل إن الأسى	مغربته خور أو ملل
ألا تبصرون حياة الكرامة	فاضت شعورًا وسالت جذل؟
فلا تتمادوا بأشجانكم	مع النائحات فأنتم أجل

ذكرى شهداء العلم والغربة

ولا تهنوا فالأمني دنتُ ولا تيئسوا فالليالي دُولُ
ولا تعبئوا بانقلاب الزمان أجَدَّ بأحداثه أم هَزَلُ
وسيروا على رَشْدٍ للأمام فلم يبقَ في الشوط إلا الأقلُ
وقولوا إذا ما أهابوا بكم أجلُ يا دعاة المعالي أجلُ

وتلاه الأستاذ محمد أفندي حسين العراجي المحامي الشهير بإسكندرية، فألقى كلمة استرعت الأسماع وهوت آلام النفوس، وكفكت دموع العيون.
وقام بعده الأستاذ الشيخ عبد الحميد النحاس فاختم الاحتفال بخطبة أثرت في السامعين وكانت خير تعزية لآل الفقيد.
ثم انصرف المشيعون من القرافة الساعة السابعة مساءً وهم يعززون بعضهم البعض في هذه الكارثة العامة.
وقد أرسل والد الفقيد تلغرافين أحدهما لحضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا رئيس لجنة الاحتفال بالإسكندرية، هذا نصه:

بلسان الوطن المحبوب نرفع إلى سموكم شعائر الامتنان على عنايتكم الشريفة بتشجيع جناز الشهداء، ونسأل الله أن يبقيكم ذخراً للوطن وبنيه.

والد أحد الشهداء
حسن بكري

والثاني لصاحب السعادة الشيخ الوقور محمود باشا سليمان رئيس لجنة الوفد المركزية، وهذا نصه:

أقدم آيات الحمد للوفد المصري ومعالي رئيسه في شخصكم الكريم على شعور التضامن الشريف والاهتمام للوطن وبنيه باستحضار جثث شهداء العلم وتشجيع جنازهم. لا زلت مصر نصراء مصر للمصريين.

والد أحد الشهداء
حسن بكري

(٣) ترجمة حسين أحمد جلبى

(١-٣) مولده



المرحوم حسين أفندي أحمد جلبى من القاهرة.

وُلِدَ شهيد العلم وفقيد الوطن المرحوم حسين أحمد جلبى عام ١٨٩٩ ميلادية بحارة درب القزازين بقسم الجمالية بالقاهرة، وهو نجل السيد أحمد جلبى الكبير تاجر الحرير بالتربية وكبير العائلة. والسيد أحمد شديد العناية بتربية أنجاله وتهذيبهم في الصغر وبث روح الفضيلة والمروءة في نفوسهم وتعويدهم على تأدية الفرائض الدينية حتى يشبوا صالحين، لاعتقاده بأن تقوى الله أساس نجاح الإنسان في هذه الحياة الدنيا، لأن الإنسان إذا اتقى الله في جميع أعماله يكون موفقاً لعمل الخير دائماً، ومن كان موفقاً للخير والسعي في صالح العباد يصيب النجاح في حياته.

(٢-٣) دراسته

لما بلغ الفقيه السابعة من عمره أحقه والده بمدرسة خان جعفر التحضيرية ليتلقى مبادئ الكتابة والقراءة ولبت فيها ثلاث سنوات، ثم أدخله مدرسة القربية الأميرية فنال منها شهادة الدراسة الابتدائية وهو في سن الرابعة عشرة.

وفي هذه السنة من عمره أدخله والده بالقسم الداخلي بمدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية، وكان وجوده في ذلك القسم مدعاةً لاجتهاده وانصرافه إلى المذاكرة. وقدم في امتحان شهادة الكفاءة فحصل عليها، ثم استمر في تحضيره لامتحان الشهادة الثانوية وقدم لدخوله فحالت بينه وبين تأديته اضطرابات شهر مارس سنة ١٩١٩م المعروفة وفصل من المدرسة بأسبابها.

وكان المرحوم حسين على صغر سنه عالي الهمة متين الإرادة، وكان يجيد الكتابة والرسم بيده اليسرى كما يجيدها بيده اليمنى، وكان مستمسكاً بأوامر الدين مستقيماً في سيره وسيرته كريماً في خلقه محباً لوطنه.

ولهذا لم يُننِ عزمه عن طلب العلم فصله من المدرسة، فأظهر لوالده رغبته في السفر إلى أوروبا لمواصلة الدراسة فلم يجد الوالد بداً من تلبية طلبه، وأعد الفقيه عدة السفر إلى بلاد الألمان مع المهاجرين إليها في طلب العلم، فساقه القدر لما أصابه في حادثة التصادم وقُضي على آماله الواسعة معه. وقد شُيعت جنازته بالقاهرة وحُمِلَ إلى مدفن العائلة أمام ضريح الأستاذ المنوفي بجوار العفيفي بقرافة المجاورين ودُفِنَ به. وقد توافد العظماء والوجهاء والتجار لتعزية والده الحزين وأشقائه حضرة صاحب العزة إبراهيم بك أحمد چلبی القاضي بالمحاكم الأهلية، وحضرات محمد أفندي عبد السلام چلبی بهندسة وزارة الأوقاف، وعلي أفندي أحمد چلبی الطالب بالمدرسة الحربية؛ فقابلوا عطف الأمة بالشكر والامتنان.

فرحم الله الفقيه العزيز وألهم أسرته الصبر الجميل!

(٣-٣) شكر أسرة الفقيه لمن واسوها

وقد كتب السيد أحمد چلبی والد الشهيد وأشقائه يشكرون الأمة لمشاركتها إياهم في مصابهم، رافعين أكف الضراعة إلى الله — تعالى — أن يبارك في أبناء الأمة ليعوضوا عليها هذه الخسارة. كما أنهم يقدمون للشعب الإيطالي العظيم مزيد الشكر لاهتمامه

بأمر الشهداء وتشيع جنازتهم، ويقدمون للوفد المصري آيات الشكر لما بذله من العناية بنقل رفات الشهداء، ويسألون المولى القدير أن يبارك في رجاله ويكمل أعمالهم بالنجاح.

(٤) ترجمة شفيق سعيد

(١-٤) مولده



المرحوم شفيق أفندي سعيد من صهرجت الكبرى.

وُلد الشاب التَّقِي النقي مثال الجد والاستقامة المرحوم شفيق سعيد ببلدة صهرجت الكبرى في اليوم السابع من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٥م، وهو نجل المرحوم شيخ العرب سعيد محمد من كبار عائلة شريف المشهورة بتلك الناحية، وعميدها الكاتب الشاعر صاحب العزة عبد الله بك شريف العضو بمجلس مديرية الدقهلية والمعروف بوطنيته وهمته العالية.^٣

^٣ قد جئنا على ترجمته وفذلكة من تاريخ حياة عائلته في الجزء الأول من كتابنا «الكنز الثمين» صحيفة ٤٨٦.

نشأ الفقيد من بيت عريق في النسب، شريف الحسب. وكان على صغر سنه مثلاً من أمثلة الفطنة والأخلاق الحميدة والوداعة، ورأى والده ذكاءه وحبه للاستطلاع والوقوف على حقيقة كل شيء يمر ببصره فأدرك ميله للتعليم فبعث به إلى القاهرة.

(٢-٤) دراسته

ودخل الفقيد مدرسة القرية الأميرية فأكبر آية ذكائه معلومها، ومكث بها حتى نال الشهادة الابتدائية، ثم التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية ففاز على زملائه في جميع الفصول حتى حصل على شهادتي الكفاءة والبيكالوريا.

وكان الفقيد ميالاً للرياضيات، وحل ما فيها من المعضلات، فالتحق بمدرسة الهندسة السلطانية فكان موضع تجلّة أساتذتها واحترامهم الفائق، ثم دفعه شغفه بارتضاع أفويق العلم الصحيح إلى الانضمام للقافلة العلمية المهاجرة إلى بلاد الألمان، فشرع عن ساعد الجد والعزيمة مغترباً عن زوجه وولده الوحيد محمد الذي كان يبلغ من العمر حينذاك نصف العام، وسافر — رحمه الله — مودّعاً من عائلته الكريمة، مزوّداً بإكبارها لهمته وإعجابها بإقدامه. وأقلعت الباخرة حلوان بتلك القافلة، وكان أولئك الشبان المصريون موضع إكرام المسافرين وتبجيلهم، وكانوا يملئون الباخرة حياةً وسمراً، بل كانوا كالحمام في الحنين إلى عشها وكأنهم بمظهرهم هذا كانوا يودعون الحياة ويقضون ما بقي من أيامهم في التزود من انشراح الصدر وترك حبل الأقدار على غاربها.

وما هي إلا أيام كانت عائلة الفقيد فيها تتلَهّف على أخباره وتترسم آثاره حتى جاءها نبأ وصوله سالماً إلى «تريستا»، وما كادت تحمد الله على سلامته وتحمل أجنة النسيم تحياتها إليه حتى جاء الخبر المفجع، فانقلب سرورها حزناً وضحكها بكاءً، وتوافد أهل البلاد المجاورة على صهرجت لتعزية أشقائه وعائلته الأسيفة لفقد فرع من تلك الدوحة العظيمة.

ومما يؤثّر عن الفقيد أنه كان لا يتعاطى المسكر، ولا يميل إلى سفاسف الأمور، وكان لا يترك فرائضه الدينية، وكان يعطف على الفقراء والمساكين ويمدهم بما يوفقه الله إليه.

(٣-٤) الاحتفال بجنائز الفقيد

نُقلت جثة الفقيد بعد احتفال الإسكندرية إلى بنها، فاحتُفل بتشييعها احتفالاً مهيباً في موكب كبير يتقدمه رجال الطرق الصوفية حاملين أعلامهم، فالموسيقي، فالجنود ركباناً ومشاةً، فطلبة مدارس بنها الذين عطلوا الدراسة للاحتفال بأخيهم الراحل، فنعش الفقيد ملفوفاً في علم مصري، فجمهور من كبار الموظفين والأعيان يتقدمهم سعادة المدير نائباً عن عظمة السلطان، فالعلماء الأعلام، فالآباء الروحيون، فكثير من المشيعين من وطنيين وأجانب. وظل الموكب سائراً على هذا الترتيب مخترقاً شوارع المدينة — وكانت حوانيتها مغلقةً والأعلام منكسةً عليها — حتى وصل إلى محطة الدلتا فنُقلت الجثة إلى مركبة ألحقت بقطار سافر إلى صهرجت، ورافقها كثيرون من المشيعين.

(٤-٤) الاحتفال بصهرجت الكبرى

ما كاد يصل القطار المقل لجثة الفقيد إلى صهرجت حتى كانت الألوف قد اجتمعت هناك من العمد والأعيان، ولما حان موعد تشييع الجنازة إلى مقرها الأخير عُقد موكب كبير يتقدمه موسيقي كوم النور، والعلماء، والقُسُس، والموظفون، وتلاميذ مدارس ميت غمر وصهرجت، ونعش الفقيد محمولاً على الأعناق يتبعه أعيان البلدة والعمد، حتى وُوري التراب مأسوفاً على شبابه وحرمان الوطن من ثمرة اجتهاده.

وكان الشيخ الوقور صاحب السعادة محمود باشا سليمان قد أوفد صاحب العزة محمود بك عبد النبي العضو بمجلس مديرية الدقهلية وأحد أعضاء لجنة الوفد المصري إلى ناحية صهرجت الكبرى مقر عائلة المرحوم، فاستقبله صاحب العزة عبد الله بك شريف وحضرات إخوة الفقيد وجميع أصهاره وأقاربه، فأبلغهم حضرته أنه موفد بالنيابة عن الوفد المصري لتعزيتهم. ثم تلا عليهم آيات بينات ومأساةً بليغةً مرسلةً من ذلك الأب الرحيم والشيخ الجليل، فكانت على نفوسهم المبروكة وأفئدتهم الموجعة مرهمًا شافيًا، فأثلجت الصدور ونفثت عنهم لوعات تلك النازلة التي لولا وقوعها موزعةً على جميع طبقات الأمة لعرَّ احتمالها.

فرحم الله الفقيد رحمةً واسعةً، وألهم عائلته الصبر الجميل!

(٥-٤) حفلة تأبين الفقيه بصهرجت الكبرى

لم تكد جثة الشهيد تُوارى في ثرى مسقط رأسه «صهرجت الكبرى» وما كادت تخفت زفرات النادبين وحسرات الباكين، حتى وقف الأستاذ الفاضل الشيخ بكري هندي بين الجموع المحتشدة فألقى كلمة مؤثرة استجمع فيها ما يسر الله له من الرثاء والتعزية، فكانت بردًا وسلامًا على القلوب المشتعلة بنار الحزن.

ثم تلاه الأديب الفاضل السعيد أفندي حبيب، من نجباء طلبة المدارس الثانوية بالقاهرة، فألقى هذه الكلمة الطيبة التي أسالت الدموع وحركت الشجون، قال:

أي شفيق، يا كوكبًا هوى من سمائه، كيف تنتهي بك نفسك الوثابة إلى تلك الحفرة الضيقة بعد أن ضاقت بك مصر على سعتها؟ أأنت راضٍ يا شفيق أم أرغمتك المنون فاستسلمت فنمت؟ إلى حد نومك، إلى ميقات أودعت روحك. أي شفيق، أيقنك افتراش الغبراء والتحاف الصخور؟ إيه، لو كانت المنون تقبل الفداء لما نمت نومتك!

وارحمته عليك يا شفيق، وارحمته على شبابك الذي ذوى قبل ينعه وقبل أن تنضج ثمراته.

واعزاءً لزوجك التي ثكلتك، ولأمك التي فقدتك، ولأهلك وذويك! واعزاءً لصحبك! واعزاءً لنا جميعاً!

أي شفيق، إن المصاب جلل والفاجعة عظيمة، فلا عتب إن رأيتنا واجمين! أي شفيق، يا شهيد همته وضحية عزيمته، يا رسول حزننا الأبدي، ونذير تفجعنا اللانهائي.

أي خطب دهي أسرتك؟ وأي مصاب جاء زوجك؟ وأي يتم لحق طفلك؟ وارحمته يا شفيق! وامصيبتاه! واحرّ قلباه!

يا شفيق، لو كانت الدموع تكفي للتعبير عن حزننا لهمرناها انهمارًا ولسكبناها أنهارًا ولكنها دون حزننا، فلترفرف علينا روحك العالية لترى منا المفجوع الباكي، لترى تلك القلوب الدامية والأفئدة المكومة، لترى زملاءك قد جاءوك ليزرفوا العبرات على قبرك تفجّعًا عليك وعلى شبابك وإيذانًا لفقدهم إياك، وهل فقدوا غير أخ زكي ورفيق محبوب طاحت بروحه الأيام فأوردته المنون في بلاد غير بلاده، في بلاد غير مصر، في بلاد غير وادي النيل، فوافجعتاه؟!

أي طفلَ شفيق، أَوْلَا تتشوق إلى أبيك؟ أتأمل أن تراه مرةً أخرى؟ يفجعني أن تكون حُرمت أباك، يفجعني أنك لا تراه إلى الأبد، يفجعني أنك ستعيش بلا أب، يفجعني أنك ستبقى يتيمًا! فلتبك ما أردت، وها نحن نبكي معك بكاءً مرًّا.

أي طفلَ شفيق، يا من حُرمت لذة الحنان الأبوي، يا من أُصبت في أعز ما لديك وإن كنت لم تقدر للحياة قدرًا بعد، يا من فقدت والدًا هو كل ما تقرر به عينك في هذه الحياة المظلمة، فرحمةً لوالدك أيها الطفل، وفي ذمة الله أبوك وفي وديعته.

ثم جلس ونهض بعد ذلك فألقى قصيدةً بليغةً تسيل أسى وتنفجًا نظمَ شقيقه الشاعر الوجداني الرقيق الشيخ عبد الله حبيب الطالب بالقسم العالي بالأزهر الشريف، وهي من الشعر النائح الذي ينبعث من أعماق النفس فيهبز العواطف ويؤثر في القلوب. وهذه هي القصيدة:

زين الشباب وآية الآيات
ويداه قاسية على الزَّهْرَاتِ
تنمو وتثمر ناضج الثَّمَرَاتِ
بين الخلائق نافذ الرَّمَيَاتِ
فيصيب أعلى قمة الهَضَبَاتِ
في «مونتبا» مشئومة الطَّلَعَاتِ
كتصادم الآمال بالعقباتِ
راحوا ضحية مسرع الهَمَّاتِ
«فلتحي مصر» شريفة الغاياتِ
فمهم وهم في سكرة النُّزَعَاتِ
سَفَرًا قويماً ناصع الصفحاتِ
ولشدَّ ما سالت من الحسراتِ!
يشتَّم منها عاطر النفحاتِ
فالحزن أضحى أطيب النغماتِ

في ذمة الآمال والعَرَمَاتِ
يا زهر مصر عدتْ عليه يدا الرَّدَى
الموت يَهْنِصِر الغصونَ ولم تكد
يعدو القضاء على الشباب وإنه
وتراه ينزل كالصواعق من عل
ساقتهم الأقدار يلقون القضا
نالوا المنية في احتمال تصادم
لَهْفِي عليهم في ربيع شبابهم
صاحوا «بملنر» والبخار يقلهم
هتفوا لمصر ولم يغادر ذكرها
فليكتب التاريخ فضل جهادهم
سالت نفوس بني الكنانة حسرةً
فليبك طيرٌ في الحداثق لم يعد
وليحك سجع الحزن في نغماته

والنيل فليعبث به بَرُحُ الأسي والنور فليُغمض عن النظراتِ
والأرض فلتلبس شعار حدادها وأسى على أزهاره النَّضراتِ
حزناً على غصن الشباب وقد ذوى

* * *

سقياً لقبرك يا «شفيق» يجوده منا جميعاً صَيَّبُ الْعَبَرَاتِ
يروى ذووك اليوم أطباق الثرى بالدمع رِيَّ السُّحْبِ للرُّوضَاتِ
يا راحلاً عن نيل مصر وقلبه متعطش منه إلى قطراتِ
أسلمت روحك للجهاد وديعةً يا ليتها كانت إلى ميقاتِ
ووثبت في طلب المعارف وثبةً جاءت برغمك آخر الوَثَبَاتِ

ورجع المشيعون من المقبرة إلى دار عائلة الفقيد حيث أُعِدَّ سرادق فخم، وهناك
تُلِيَت آيات الكتاب الحكيم فكانت شفاءً لما في الصدور وكانت رحمةً من السماء نزلت
على القلوب فسلكت بها سبيل الصبر والرضا بما قضاه الله وسبق في علمه.
ووقف أحد طلبة مدرسة رأس التين بالإسكندرية فألقى كلمةً شاملةً، ضمنها كلمة
ساميةً كانت من خير ما يعزى به المحزونون.

ثم وقف أحد الأساتذة خطيباً وناثباً عن لجنة تشييع الجنازات بالإسكندرية، فألقى عبارة مؤثرة قُوِّلت بالثناء الطيب.

ثم تلاه الأديب الفاضل محمد أفندي شريف ابن عم الفقيد، ونجل حضرة صاحب العزة الشاعر الفصيح عبد الله بك شريف، وألقى قصيدة عصماء من نظم والده الجليل أثَّرت في النفوس تأثيراً بليغاً. قال عبد الله بك أمد الله في حياته:

وصونوا عيوننا للدماء تُريقُ
بأحسن ما يُهدى لهم ويليقُ
نفوساً إلى نيل الرجاء تتوقُ
سَيَعْدُبُ يوماً مُرُّهُ وَيَرْوُقُ
هي السيف إلا أنه ممشوقُ
لعمري ألا إن القضاء يسوقُ
فَلِلصَّبْرِ لِلآسِي أَخٌ وَرَفِيقُ
ففي زمة العلياء ذا التفويقُ
فقلنا لهم للشرق فيه حقوقُ
عناصر منها جسمهم مخلوقُ
سواء لها التغريب والتشريقُ
أضاء لها قبل الغروب شروقُ
دنا وله فوق الغصون نعيقُ
ألا كان في غير الشباب يحيقُ
يحن لذكراهم دم وعروقُ
كريمان كلُّ ثابتٍ وعريقُ
إلى العلم لا يلويه عنه طريقُ
وآب نصوح صاحب وشقيق
وقال أنصح طائش ومذيقُ
وزوجته الثكلى: «أما شفيق؟»
وقد قال ناع إنه لحقيقُ
ومرَّغن خذاً ثم كان شهيقُ

أفيقوا وإن جلَّ المصاب أفيقوا
وحيوا ضحايا العلم بل شهداءه
وقولوا هنيئاً للذي وهب العلا
إذا استمرعوا للعلم مُرَّ جهاده
فما منهم إلا فتى عَزَمَاته
وراحوا بأمر الله لا شيء عاصم
فإن هالنا من ذا المصاب فراقهم
وإن كان سهم الرُّزء جاء مُفَوِّقاً
تمنوا لو أنَّ الغرب ضم تراثنا
تكرمهم في مصر ترب وتُغْلهم
بدور وأقمار تعم بنورها
ألا فلتغب في زمة الله أنجمُ
كأن غراب البَيْن يوم اغترابهم
فيا لهف نفسي والمصائب جمّة
أهْلَةٌ أهل بل وفلذة أَكْبِدِ
ومنبت غرس فرعه وأصوله
مضى مُؤَثِّر الروح الكريم وناهضاً
وراح ببعون الله يدفعه الرجا
ولم يأبه العقل الرجيح بنصحهم
تساءل قلب الأم يوم مصابه
وأرسلن دمعاً لا يثوب إلى هدى
وقمن إلى قبر غداة يضمه

وقلن أهذا القبر يؤويه إنه	على تلکم الآمال سوف يضيقُ
أيا زهرة القطر المصاب فؤاده	على الطائر المشئوم وهو طليقُ
أراق لـ «أوديني» جمال بهائها	ودان لها المنسوق والمنشوقُ
فنالت يداها ما يُنال بخبرة	وحسن اختيار يانع ووريق
ففي ذمة الله الكريم مصابهم	بسهم ولكن ليس فيه مُروقُ
ألا إن هذا الخطب رُزء لأمة	وإنك بالصبر الجميل خليقُ

ثم شكر للمشيعين مشاركتهم لعائلة الفقيد في مصابه الذي هو مصاب الأمة وختم موقف التأبين بذلك، وانصرف المشيعون يترحمون على الشهداء الأعزاء أسكنهم الله فسيح جناته وعوض مصر فيهم خيرًا.

(٦-٤) شكر أسرة الفقيد لمن واسوها

رفع حضرة عبد الله بك شريف وأشقاء المرحوم شفيق سعيد تلغرافًا إلى صاحب السمو الأمير عمر طوسون رئيس لجنة الاحتفال بالإسكندرية، هذا نصه:

بلسان الشكر والواجب المقدس نرفع إلى سموكم واجب الامتنان على عنايتكم بتشجيع جنازة الشهداء، ونسأل العناية الصَّمدانية أن تكلأ سموكم ذخراً للوطن وبنيه.

وقد بعثوا تلغرافًا لسعادة محمود باشا سليمان رئيس لجنة الوفد المركزية، ونصه:

نقدم آيات الشكر للوفد المصري ومعالي رئيسه في شخصكم العظيم، للاهتمام باستحضار جثث شهداء العلم وتشجيع جنازتهم. لا زلتم نصراء الأمة المصرية. عم وأشقاء الشهيد شفيق سعيد

(٥) ترجمة محمد إبراهيم زويل

(١-٥) مولده

وُلد الفتى النبيل فقيد الهمّة محمد إبراهيم زويل بمدينة دمنهور قاعدة مديرية البحيرة عام ١٨٩٣م من أبوين سريّين، وكان لا يعيش لأمه أولاد فعاهدت الله إذا رزقها مولوداً أن ترتحل به عن مدينة دمنهور، ولما وضعت الفقيد برّت بعهداها، فحملته إلى قرية بسيون بمديرية الغربية ولبثت بها حتى شبّ وترعرع ونمت عضلات جسده وأصبح يدرك ما حوله من الأشياء، وأحس من نفسه على صغر سنه بهاجس يجيش في صدره إلى تحصيل العلم فكاشف والدته بما في نفسه، ولم يكن بالقرية مدرسة تلحقه بها، وهي مع محبتها له وعنايتها به لم تجد بداً من العودة به إلى دمنهور، وألحقته بإحدى المدارس الأولية، وأكبرت في نفسه هذه الأمانى الشريفة.

(٢-٥) دراسته

أدرك الفقيد مبادئ القراءة والكتابة والرياضة، والتحق بمدرسة التعاون الإنساني بدمنهور عام ١٩٠٩م وحصل على شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٢ ميلادية. وفي تلك السنة انتظم في سلك طلبة مدرسة المساعي المشكورة الثانوية بشبين الكوم ونال منها شهادة الكفاءة.

ثم جاء إلى القاهرة وتخير المدرسة الإعدادية لإتمام دراسته وذلك عام ١٩١٥م، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩١٦م. وكان في سائر أيام دراسته آيةً من آيات الذكاء المصري والنشاط الخليق بهم الشباب.

وفي عام ١٩١٧م التحق بمدرسة الحقوق السلطانية ومكث بها ثلاث سنوات، ثم أجمع أمره بعد ذلك على الهجرة إلى عاصمة الألمان لإتمام دراسته بها مع المهاجرين من شباب مصر ليرتشف العلم من مناهله، حتى وقف به الأجل دون مرحلة همته.

وكان رحمه الله على جانب من رقة الأخلاق ووفرة الذكاء وطلاقة الحياء، وكان شغوفاً بالأدب حسن الأسلوب في الكتابة، إذا أسمعك حديثاً اجتذبك لسماعه بطلاوة حديثه. وكان محبوباً من عشيرته محترماً من أصدقائه لا يميل إلى الهذر في القول، ولا يألف إلا من يحب المروءة ويرفع عن الدنيا، ولو أن الأجل أمهله لكان أدى لوطنه أجل الخدمات، ولكن هكذا قضى الله ولا مرد لحكمه له الأمر وإليه ترجعون.



المرحوم محمد إبراهيم زويل من دمنهور.

ولما طير البرق خبر وفاته أُقيمت ليالي المأتم ببندر دمنهور، وفي الليلة الثانية منها ألقى حضرة عبد المعطي أفندي إبراهيم حجاج، الموظف بمصلحة المواني والمنائر بالإسكندرية، هذه الكلمة البليغة المؤثرة:

ولو قبل مبكاها بكيت «مرارة» لكنك شَفِيتُ النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج بي البكا بكاهها فقلت الفضل للمتقدم

أيها الفقيد الشهيد

هاجرت في سبيل العلم والوطن، ولم يُثْنِك عن المهاجرة رجاء والدتك الثكلى التي أنت كل أملها في هذا الوجود، ولم يقعدك توسلها وضراعتها إليك، وتلهفها عليك، وتوجعها لبعدها، وتفجعها لفقدك، بل ولا دموعها التي كانت تفيض منها أسى نفسها، وتتطاير لهب أنفاسها، ومن ورائكما وطنك يهيب بك أن سافر في طلب العلم الصحيح وعد به تنشره علينا، وقل هذه بضاعتنا ردت إلينا.

فأصخت للوطن السمع ولبيت نداءه، علمًا منك بأن حبه فوق كل حب، وأن في إسعاده إسعاد الكل، ولم ترحم كبر والدتك وشيخوختها ولسان حالك يقول:

زريني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصةً
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

سافرت أنت ورفاقتك وقد وُدَّعتم منا أجمل وداع يليق بهممكم وشَمَمكم ونفوسكم الوثابة للمجد الطماحة إلى الجهاد لنصرة الوطن المفدى، وداعًا يليق بتلك القلوب المملوءة عزماً وحزماً وهمّة وذمّة، وأملًا وعملاً، لأنكم ضربتم لنا في هجرتكم هذه مثلاً بليغاً في الإقدام وتضحية النفس والنفيس في سبيل الوطن العزيز، وفي أنكم لم يرضكم من العلوم القشور ومن المعارف مصة الوَشل، بل أردتم أن تَرُدُّوها عذبةً من منابعها صفوًا من مناهلها لا يشوبها شائب أو يكدرها مكدّر.

سافرت أنت ورفاقتك وقد ضربتم لنا مثلاً في الوطنية غاليًا، وأرسلتم في الخافقين صوتها داويًا عاليًا، لا، بل ضربتم للأمم الغربية مثلاً ناطقًا بأن المصري رجل جد وعمل يعرف معنى الحياة ويدرك سر الرقي وأنه خليق بنيل ما تصبو له نفسه من الأماني القومية الشهية.

سافرت وسافروا، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى دوت أسلاك البرق
النبا المشئوم فاهتزت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها جزعاً وارتجفت هلعاً،
فعلما أن قد حُمَّ القضاء وخاب الرجاء وجل العزاء، وأن قد جاءت المنية
من طريق الأمنية، علما أن قد دُكَّتْ هضبة من هضبات العلم وقُوض صرح
من صروحه الشاهقة، وهوت الأهلة من هالتها المستقلة، وهُصرت الأزهير من
روضها النضير، علما هنالك أن قد أخذت السبل عليكم وسُدَّتْ الفجاج دونكم،
فاحتكم فيكم الحَيْن واشتفى منكم اليَن. ولو أنصفت حوادث الأيام لتركت
هذا السرب محلقاً في فضاء العلم الفسيح، فلا تذعر آمنه أو تثير مساكنه،
ولكن هي الأيام ملأى بالعبر من باب المبتدأ حتى الخبر.

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نارٍ
طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقداء والأقدار

فإيه أيها الشهداء! لقد أفدتم وطنكم في حياتكم فائدةً جُلَى، وأي فائدة
أجل من فتحكم باب تحصيل العلوم الصحيحة للنشء على مصراعيه؟ ذلكم
الباب الذي ما كان يلجُه إلا القليل من الشبيبة المصرية من لا يتجاوزون
أصابع اليدين عدداً، بل أي فائدة أعظم من كونكم خلقتُم لنا عهداً جديداً عهد
المهاجرة في سبيل العلم؟ وهاهم المئات في أثر المئات من شبيبتنا الناهضة
يقتفون أثركم ويؤمنون البلاد الغربية طلباً للعلوم الحية، ولم تُثْنهم فداحة
هذا المصاب أو ما يلقونه من كثرة الصعاب. وإن من يفتح مغلقات القلوب
بنور التأديب والتهديب لهو أجل خطراً وأبقى ذكراً وأثراً ممن يخضع الرقاب
بحد السيوف.

وأفدتم وطنكم باستشهادكم فائدةً أتم وأعم، وهاهي مصر وقد خفق
قلبها للمرة الرابعة لفجيعتكم، فكان يومكم يوماً مشهوداً تجلى فيه الحزن
عميقاً والأسى شديداً، فالأكباد حرى والأعين عبرى، والنفوس سكرى، والحزن
تترى، شفعاً ووترًا. وحق على مصر وقد فقدت هذه الشمائل الزهر والأخلاق
الغر أن تشق جيب الصبر وتجعل النار حشو الصدر.

الله أكبر! سيذكر التاريخ لكم هذا اليوم بكل تجلة «والذكر للإنسان
عمر ثان»، وسيبقى ذكركم خالداً ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماءً:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءُ﴾. وفي هذا العزاء كل العزاء حتى أصبح كل والد أو والدة (على الخصوص) فقدت فلذة كبدها في هذا الحادث المؤلم تقول قول الخنساء لما بلغها استشهاد بنيتها الأربعة يوم القادسية بعد تحريضها لهم على القتال: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو ربي أن يجمعني معهم في مستقر رحمته». أخلق أيها السادة بأمة هذا مبلغ عطفها على أبنائها الشهداء الأعزاء أن تتبوا المنزلة اللاتقة بها وبمجدها بين أمم العالم جمعاء قريباً إن شاء الله. وأخلق بمديرية هذا مبلغ احتفالها بشهيدها العزيز أن تكون في مقدمة المديرية قيماً بكل واجب وطني مقدس ونهضة شريفة. فسلام على شهدائنا الأبرار الأطهار يوم عدا عليهم الموت فهصر غصن هذا الشباب، ووارى بُدورهم التراب. وسلام عليهم يوم عادت جثثهم إلى هذا الوطن الأسيف، فسطرت له أحرف الفخار في أوبتها كما سطرت له في غربتها.

(٣-٥) لجنة الاحتفال بدمنهو

تشكلت لجنة بمدينة دمنهور للاحتفال بتشيع جنازة شهيد العلم المرحوم محمد إبراهيم زويل، برئاسة حضرة صاحب العزة الوجيه كامل بك الحرفة وعضوية حضرات أصحاب العزة محمد بك بلبع ومحمد بك الوكيل وأحمد بك غزال وعلي بك نجاتي وإبراهيم بك مظهر والشيخ عبد الله الكاتب والشيخ مرسي بلبع وأحمد أفندي الوكيل والشيخ سليمان بلبع ومحمد أفندي رفعت الزرقا. وقد اجتمعت يوم الخميس ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٠م وقررت الاحتفال بتشيع الجنازة وانتخاب لجنة فرعية لترتيب الموكب مؤلفة من حضرات علي بك نجاتي وسعد أفندي الأنصاري وحليم أفندي فهمي وأحمد أفندي عبد النبي، فقامت بما عهد إليها خير قيام.

وفي يوم وصول الجثة إلى دمنهور كان في استقبالها جمع كبير من الوجوه والأعيان وكبار التجار يتقدمهم صاحب السعادة مدير البحيرة، وما وافى موعد تشيع الجنازة حتى غصت ساحة المحطة بألوف المشيعين، وسار الموكب يحفه الوقار والجلال على النظام الآتي: فرقة الكشافة من راكبي الدراجات والبيادة - الموسيقى - مدارس الزراعة والصناعة والأقباط والتعاون والمعلمين - نعش الفقيد مجلل بالرياحين ومحاط

بالفرسان - العلماء الأعلام - الآباء الروحيون - أعضاء لجنة الاحتفال - أعضاء الهيئات النيابية - موظفو مصالح الحكومة يتقدمهم سعادة المدير نائباً عن عظمة السلطان - رجال القضاء والنيابة - المحافل الماسونية - الأعيان والتجار - موظفو المصالح الأهلية - أعضاء نقابات العمال بأعلامهم - جمهور المشيعين. وما زال الموكب سائراً على هذا الترتيب مخترباً شوارع المدينة حتى وصل إلى مدفن عائلة الفقيد فأُنزلت الجثة إلى مضجعها الأبدي.

وكانت لجنة الاحتفال قد انتخبت لجنةً لتأبين الفقيد مؤلفةً من حضرات محمد بك بلبع وسعد أفندي الأنصاري والأستاذ الشيخ محمد العصار وأحمد أفندي عبد النبي، فقاموا بتأبين الفقيد وذكروا تلك الفاجعة بأسف شديد على شباب مصر الذي ذهب ضحية القضاء والقدر، في الوقت الذي تحتاج فيه مصر إلى الألوف من النوابع المحبين للعلم أمثال هؤلاء الشهداء، وقد تلاهم كثيرون من الشعراء والأدباء يوم حفلة التأبين فعددوا مآثر الفقيد وشرحوا ما كان عليه من مكارم الأخلاق وشريف المبادئ.

ومن القصائد التي أُلقيت يوم التأبين هذه القصيدة وهي لحضرة الشاعر الأديب «عبد الجواد أفندي محبوب مكابد»، وهي:

ما دام يفتك بالورى عزريلُ	ما للأنام إلى الخلود سبيل
طُراً وما غير التراب مقيلُ	نحيا فنسعى ثم نقضي نحبنا
بمديد دهرك تافهُ وضئيلُ	والعمر مهما طال إن قارنته
حُمّ القضاء وليس منه بديلُ	سَيَّانَ أَرذله وأقصره إذا
هو للحياة مخادُنٌ وزميلُ	والموت مدركنا وإن طال المدى
أهلاً وآخر للخطوب قتيلُ	لا فرق بين مودّع بفراشه

* * *

نبا لكم في وقعه تخبيلُ؟	يا آل «حاضرة البحيرة» هل نمى
صرعى العلوم ولم يبُلْ غليلُ	عن نشء مصر النابهين وقد قضا
بهوى يرد الطرف وهو كليلُ	تركوا بلادهم يرومون العلا
ودواء داء القطر وهو دخيلُ	ركبوا البحار وهم محط رجائنا
نرجو بخير والدعاء كفيلُ	وصلوا إلى «نيلي» وكلهم كما

بعد العناء وللقضا تعديل
كنا نود ووُدُّنا تضليل
والدهر بالإخبار عنه بخيل
حتى إذا انفضوا وأن رحيل
فكأنه لهم إليه دليل
وعليهم ستر الممات سديل
أن المنية فوقهم إكليل
وبدا لهم سيف الحمام صقيل
إلا وخطب النازحين وبيل
صرعى بضقع ليس فيه خليل
أكباد أهل بالدماء تسيل
ضربات موت ما لها تأجيل
متململين وفي الصدور أليل
ودماؤهم عَلم هناك جليل
منهم شهيد للعلوم قتيل

من هذه أخذوا جواز رحيلهم
جاءوا إلى «تريست» باليُمن الذي
لم ندر ما خبأت لهم أقدارهم
تركوا «ترستا» بعد ما عرجوا بها
قام القطار بهم لموضع حتفهم
قصدوا «أديني» والقلوب خوافق
لم يعلموا مذ زایلوا أوطانهم
كمنت لهم في القاطرات بسيرهم
حل التصادم بالقطار وما دوى
خروا لرجات الفجيعة كلهم
فتناثر العقد الذي حباته
ما بين قتلى أخدمت أنفاسهم
وفريق جرحى مُدْرَجين على الثرى
مزجوا دماءهم لمصر بدمعهم
فنجومه جرحاهم وهلاله

* * *

إلا وماج القطر ثم النيل
عز العزاء وما إليه سبيل
فالقطر دمع طافح وعويل
رامي السهام فعيشها تنكيل
عيناه لا صبر يعين جميل
ذابت قلوب وجدهن وبيل
هيئات تبقى والفؤاد عليل
وقع الكوارث فالثواب جزيل
حيث الزمان مسالم وذليل
أن ابن مصر لمرغميه سليل
فالله للعبد الصبور وكيل

ما كاد يأتينا نعي رفاتهم
وتحرك الأهرام من فرط الأسى
من كل عين عبرة مهراقة
ولهي لأم قد أصاب وحيدها
وأب قد ابيضت لشدة حزنه
يتناوبان الدمع وهو إذا عصى
فذوت لها الأجسام من عظم الجوى
فتصبروا آل الفقيد وجالدوا
قد أخضع الأيام أجداد لكم
واليوم قام الدهر يثأر عالمًا
والحرب في الدنيا سجال فاصبروا

يا راحلين عن الدنيا لا عن رضا
لعبت بكم أيدي الفنا فهو يتمو
والطود إن عبثت به أيدي الردى
ناموا جميعاً ناعمين برمسكم
لكم بجنات الخلود أريكة
ولتعلموا أنا سلكنا نهجكم
نسعى لتحقيق المرام بهمة
والله حسب الطامحين إلى العلا

حتى يرد المجد وهو أثيل
خلف الفريد فرزءنا لجليل
مالت له الأجزاء حيث تميّل
فسحائب الرضوان سوف تنيل
فوق الأرائك والجهاد ينيل
فسبيلكم هي للمنى قنديل
شماء ليس لها هناك مثيل
فإذا قضوا هو بالجزاء كفيل

وتلاه حضرة الشاعر المجيد محمود أفندي محمد حسن وألقى هذه القصيدة:

طَعَنْتُ بِأَسْيَافِ الْمَنَايَا الْحُومَ
وَسَطَا الْجِمَامُ عَلَى بَوَاكِرِ النَّهْيِ
وَلَوَى الْقَضَاءُ بِهِمْ فَمَا مِنْ عَاصِمٍ
لِلْمَرْءِ أَيَّامَ تَمَرٍ وَتَنْقُضِي
فَإِذَا بَلَغْتَ النِّجْمَ أَوْ جُزْتَ السُّهَى
مَدَّ الرَّدَى لَكَ حَيْثُ كُنْتَ يَمِينَهُ
أَيْدِ الْمَنُونِ أَمَا كِفَاكَ تَعَادِيًا
أَوْكَلِمَا أَوْحَى إِلَيْكَ أَنْ أَقْدِمِي
وَقَطَعْتَ أَوْصَالَ الْأَمَانِي وَالْمَنَى
وَشَرَعْتَ تَرْمِينَ «الْكِنَانَةَ» بِالْأَذَى
وَنَصَبْتَ أَشْرَاكَ الْقَوَارِعِ فَانْبَرْتَ

فتيان مصر يد القضاء المبرم
فهووا أغرّ على أغرّ معلّم
أويّصمون من القضا المتحتم؟
ويغيب بعدُ بجوف أغبر أقتّم
أو كنت مختبئًا بغابة ضيغم
فرمتك بالسهم المصيب المُكَلِّم
أفأنت رهن إشارة الزمن العمي
أقدمت لا تلوين إقدام الكمي
ووصلت مقطوع البكاء الأركم
وأخذت تلقي بالمصاب الأعظم
تصطاد كل أغرّ أروع أكرم؟

* * *

هلعت لهذا الخطب «مصر» وأعولت
عكفت على الأحزان لا تلوي على
فاقت «حناسًا» يوم مصرع «صخرها»
نادت على الأطيّار في وُكُنَاتِهَا
وعلا الضجيج بها وأصبح «نيلها»

وهراق مدمعها عصارة عَندَمِ
شيء يناقضها ولم تتبرّم
أوحت إلى الأشجان ويك ألا اقدمي
سأعلمنك اليوم كيف ترنمي
يجري بمنهمر مشوب بالدم

وارتجَّ واديها لهذا المأتم
مر السنون بها ولم تتهدم
حزناً وآخر قد أكب على الضم
تجري بتيار الأتني المفعم
هول المصاب وحمل هذا المغرم
أنفاسهم جزعاً بوجد مضم
أيدي المنون أسود مصر الجثم

وانهار جانبها وزلزل ركنها
واندكت «الأهرام» وهي كما ترى
والناس مَقْدُئِي العيون وسادر
غلب البكاء عليهمو فدموعهم
متصاعدو الزفرات أنقض ظهرهم
سالت نفوسهم أَسَى وتواصلت
حنقوا على «أودين» إذا خطفت بها

* * *

لسألت ربي الله أن تتحطمي
طلق المحيا ذو فم متبسم
يتجشم الأخطار غير مذمم
بعد متى يلق المخاوف يُقدم
أسقيته جاماً يقول أنا ظمي
لم يُرَضِّها إلا مكان الأنجم
حتى تخطى البحر ليس بمُحجم
وتقحم الأهوال مبتسم الفم
طمعاً لَعَمْرُكَ في الأمانى الحوم
لا بالملول ولا الفتى المتبرم
وبأمر ربك في «محمد» احكم
وطراً ولم يرجع لنا بالمغنم

«أودين» لولا أن أسيت لما بنا
«أودين» لي في من قضوا بك صاحب
عف الرداء أغر أروع ذو حجى
لا يركب الأهوال إلا عامداً
صبَّ بجامات المعارف كلما
وإذا النفوس صَبَّتْ إلى نيل العلا
ما زال يسعى لارتشاف كئوسها
خاض المخاوف والمخاوف جمة
وتحمل الأخطار أروع ماجداً
بيننا يجدُّ السير موصول الخطا
إذ صاحت الأقدار سارع يا ردى
فمضى ولم يبلغ مناه ولا قضى

* * *

أمسى حمامك بالقوارع مؤلمي
وتسربلت قطع الغمام المظلم
فأصمها قول النعيّ قضى الكمي
وتبدلت أفراحها بالمأتم
وتجرعت لنواك مرَّ العلقم
وردت قرارة مبكيات ترتمي

يا هاجر الأوطان في طلب العلا
لبست «دمنهو» عليك حدادها
قال النعيُّ لها كَمِيْكَ قد قضى
مشت الشجون بها وحطمها الأسى
وتململت جزعاً وزاد أنينها
لا تستنيم إلى العزاء وكلما

لفدتك بالأغلى الذي لم يُسَنَمِ
أنحت عليه بكل ماضٍ مُخَزَمِ
فيها الفداء ولا سنان الهزمِ
لك ضاعف الديان أجرك فاغنمِ
واستسلمي لله ربك تسلمي
غُرُّ لهم يُعَزَّى الفخار وينتمي
فلَكم ملايين بغابك جئتمِ
سبل العلاء سلمت أم لم تسلمِ
ما الفوز إلا للفتى المتجشِّمِ
الموت قُدِّر في الكتاب المحكمِ
واضرب برجلك في الطريق الأقومِ
تنل الأمانى الكبار وتغنمِ
نم جار ربك واغتبط وتنعمِ
وسعت إليك الحورُ فاسع وسلمِ

ولو انها تدري بأنك تفتدي
أو أن هذا الموت يدفع بالقنا
لكنها الأقدار ليس بنافع
فاذهب وقد خاب الرجاء وإنما
«يا مصر» قَدْكَ ترفقي وتجلدي
لا تجزعي أبداً ففيك فطاحل
إن تفقدي (اثنى عشر) ليثاً هاصراً
(يا بن الفراغة) اسع جهدك واقتحم
وتجشَّم الأخطار في نيل العلا
عبثاً تقول أخاف يدركني الردى
جدَّ المسير إذا أردت ولا تَنِي
وخذ السبيل موفقاً نحو العلا
(يا واحد الغر) الذين استشهدوا
هذي الفرادس أزلفت لك فازدلف

وألقي الأستاذ الشيخ «كامل قطب النعيم» هذه القصيدة:

فكلُّ بنارك في مصر صالي
فمات وما ذاق كأس المنال
تخونين منا خيار الرجال
فأصْمَيْتِ أهل النهى والمعالي
هوت فتعكر صفو الليالي
فهاموا جميعاً بشد الرحال
نفوس بريب الزمان تبالي
يروح ويغدو لها لا يبالي
ووصل المعالي أذ وصال
وأصمى قلوبهم بالنبال
وسهم الزمان «قطار إيطالي»

رويدك يا نائبات الليالي
رميت «فريداً» بسهم المنايا
وعدت وما فيك من رحمة
كأن العلا وَتَرَّتْكَ قديمًا
بدور هوت من سماء العلا
رأوا غاية للعلا عشقوها
فساروا إليها وما فيهمو
كذلك من رام نيل العلا
فبُعد المعالي أذل بعباد
رأى الدهر همتهم فانبرى
فسهم الكنانة في الحرب عُودُ

فصال عليهم بوجه عبوس
فصاح غراب المنايا بهم
وقد أنزلتهم يد الدهر من
كذلك دأب الزمان فأنّا
فمن يشتهي أن يدوم بحال
فما إن ترى العين خطبًا كهذا
فيا شؤم يوم أُصيبوا به
ولو أن خطبهم كان وقفًا
ولكن فقدنا بفقدانهم
فقدنا ذكاءً وعلمًا ونبلاً
فلن يَطْرُقَ البِشْرُ قلبًا لنا
لقد طير الخطب منا عقولًا
وأوحش ربع العلا بعد أنس
لهيب القلوب غداً في ازدياد
وأضحى بنا اليأس حرًا طليقًا
فلا تعجبوا عندما صافحتهم
فإن المُحاق يصيب البدور
عزاءً وصبرًا بني مصر إنا
على العلم كانوا أتم دليل
وكانوا لهام العلا خير تاج
وهيهات يجدي الأسى بعدهم
إذا الموت أُرِدَى حبيبك أمسى
وإن زرتة خلته صامتًا
فسُقِيًّا ورَعِيًّا لذاك الشباب
ويا رحمة الله جودي على
ويا رب أسكنهمو روضةً
ووفقهم للصواب إذا ما

وناضلهم بالردى غير آلٍ
فباتوا هناك جسومًا بوالي
ظهور العلا لبطون الرمال
تكون بحال وأنّا بحال
فقد رام جهلاً وقوع المحال
ولا قد رأت في العصور الخوالي
ويا بؤس شعبٍ وصحبٍ وآلٍ
عليهم قوينا على الاحتمال
جليل المزايا وجم الخصال
ومجدًا يطاول شَمَّ الجبال
ولن يخطر الصفو منا ببال
وأوقعها في شباك الخبال
وعطلَّ جيدًا لها كان حالي
ودمع العيون غداً في انهمال
وأمسى الرجاء رهين اعتقال
يد للعلا أن غدوا للزوال
فتخفى وَيَسْلَمَ وجهُ الهلال
جميعًا نعرىً بفقد الرجال
وللمجد كانوا أجل مثال
فلله تاج العلا والكمال
كأنني بجدواه عين المحال
قريب المكان بعيد المنال
إذا ما نطقت فغير مبالي
طويل الرُقَاد عِيَّ المقال
قبور الشباب طوال الليالي
تباركها غاديات النوال
دعوتهمو فأتوا للسؤال

فمنك تُشَامُ بُرُوقُ العطايا ومنك يُؤمِّلُ حسن المآل

ذكرنا ترجمة المرحوم محمد إبراهيم زويل. وهنا نثبت كلمةً لحضرة إبراهيم أفندي حقي صديقه وزميله في الدراسة، جاء فيها على حياته الدراسية ببيان أوفى مما ذكرناه فأثبتناها لما فيها من الفائدة لطلاب العلم والدرس العالي في النشاط والإقدام، لأن التحاق المرحوم زويل بالمدارس يعد خارقاً للنظام المدرسي الآن، لأنه ابتداءً بتاريخ حياته الدراسية وهو ابن أربع عشرة سنة، وسيرى القارئ الكريم ذلك مفصلاً في هذه الكلمة.

قال صديقه حقي

علي أحق أصدقاء المرحوم زويل بترجمته، إذ كنت ألصق الأصدقاء به وأكثرهم صحبةً له، وربما كنت أعزهم عنده وأقربهم إليه.

وحياة زويل في ذاتها وإن كانت حياةً قصيرةً عاديةً مُلئتَ بظروف قد تعرض لكثير من الشبان، إلا أنها مع ذلك لا تخلو من كثير من الأمور التي تسترعي نظر الباحث المدقق، والتي إن كان القدر هياً له العظمة لجعلها المترجم له من أول أسباب عظمته ونبوغه.

ولكن لا مندوحة لنا عن ذكرها هنا لا على أنها من علامات النبوغ أو أمارات العظمة، ولكن على أنها أمور عادية بسيطة ميزت حياته بشكل خاص، وكان لها على نفسه بعض الأثر.

فزويل مثلاً كان من أولاد التجار، ولكنه لم ينشأ نشأتهم ولم يقم في محل تجارة أبيه كما أراده على ذلك، بل كان يحث أباه على إرساله للمدرسة للتعلم إذ وُجدت في نفسه رغبة شديدة إلى العلم، وكان يرى «أولاد المدرسة» بكتبهم كل يوم فكان يغار منهم، وتشدد في طلب إرساله إلى المدرسة حتى يمكنه أن يقرأ كإخوانه الصبيان.

وكان له ما أراد، وأرسله والده إلى المدرسة الابتدائية بدمنهور وهو في الرابعة عشرة من عمره وهي سن يتخرج الطلبة فيها من المدارس الابتدائية، فلم يكن كبر سنه على أقرانه في الفرقة من دواعي كراهته للمدرسة، بل كان باعثاً في نفسه روح الجد والدرس حتى يفوز عليهم.

ولم يمكث بالمدرسة إلا قليلاً حتى توفي أبوه إلى رحمة الله. ووفاة الآباء يعقبها في كثير من الأحيان تلفُّ في الولد وفساد في تربيته لشعور الطفل بأنه أصبح مطلق العنان،

فكان في استطاعة زويل أن يهرب من المدرسة ولا يقيم في محل أبيه وأن تسوء أخلاقه ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل استمر في مدرسته بجد مضاعف.

ثم انقضى دور الدراسة الابتدائية وهو في الثامنة عشرة من عمره، فلم يجد مدرسة ثانوية أميرية تقبله لكبر سنه، فلم يُثْنِ ذلك عن التعليم، وقصد مدرسة المساعي المشكورة بشبين الكوم يتم فيها دراسته الثانوية، ثم تركها إلى الإلهامية حيث تعارفنا وأخذ منها البكالوريا، وكان في القسم الأدبي وكان ذلك سنة ١٩١٧ ميلادية.

ثم دخل مدرسة الحقوق السلطانية، وكان جميع الطلبة في القسم الأدبي يرون أن أقصى سعادتهم التوصل إلى مدرسة الحقوق، وكان زويل يرسمها في خياله صورة كبيرة ويرى فيها أوسع الآمال.

ولعل من أكبر عيوبنا التهافت على مدرسة الحقوق هذا التهافت الشديد، فكل طالب من القسم الأدبي لا تجول بخاطره غير الحقوق ولا يذهب به الأمل إلى أبعد من الدخول في مدرسة الحقوق، حتى إذا لم يستطع الدخول فيها حَسِبَ نفسه بائساً سيئ الحظ، بل صغرت نفسه في عينه وهُدمت آماله وقضى أيامه في غيرها من المدارس العليا مضطراً غير مدفوع بدافع من نفسه.

على أن زويل كان من أولئك «السعداء» الذين ضمتهم جدران مدرسة الحقوق لتحقيق لهم آمالهم الواسعة وأحلامهم الذهبية، ولكنه ما لبث أن صغرت في عينه المدرسة إذ كان يتخيلها شيئاً عظيماً هائلاً فلم يجدها كما توهم، ورأى الصعوبات التي تصادف الطلبة والمتخرجين، وأدرك أن شهرة الحقوق هذه شهرة كاذبة وراء أوهام محضة، وأنها لا تمتاز عن غيرها من المدارس العليا بشيء، وبالجمله فإنه تغير في أفكاره كثيراً وأصبحت المدرسة لا تعجبه.

وكان زويل — رحمه الله — من أشد الناس اعتناءً بصحته وأكثرهم خوفاً على حياته، إذ كان ضعيف البنية، كثير الوهم، وزاده وهماً أن بعض الأطباء ألقى إليه أن به مرض القلب فأصبح يحاذر على نفسه كثيراً، ولذا كان يراعي القواعد الصحية في أكله وشربه ونومه ورياضته ومقدار درسه، وكان لا يدخن ولا يشرب القهوة، ولا يجاري إخوانه الطلبة في شيء مما يفعلون، بل كان يبتعد عنهم، من أجل ذلك كان قليل الدرس وجاء الامتحان فرسب فيه، ولكن ساءه أن من الطلبة من كان أضعف منه في درسه ونجح وكان يمكن أن ينجح هو أيضاً لو ساعده المدرسون.

وشعر بعد هذا الرسوب بشيء من الخيبة في الحياة، وهكذا هدم ما كان يشيده من الآمال في مدرسة الحقوق، ولكنه لم ينكص على عقبيه بل تحمل صابراً ورجع إلى فرقته من جديد وإن كان هذا من أكبر دواعي الألم للطالب.

وهنا أصبحت حياته سلسلةً من اليأس لم يكن يدري بها أحد لأنه لم يكن يبوح بما يؤله إلا نادراً، ومكث بالمدرسة حتى جاءت اضطرابات مارس الماضي فعطّلت الدراسة، وهكذا رأى أن ثلاث سنين من عمره قد ضاعت هباءً لم يستفد منها بشيء.

ثم فُتِحَ الطريق إلى ألمانيا فتهافت عليه الطلبة، وربما كان معظمهم يائساً من التعليم في مصر يأس الفقيد زويل، فهجروا بلادهم يقصدون ألمانيا بالرغم مما يعترضهم في الطريق من عقبات.

ولم يكن زويل متسرعاً بل لم يكن يقوم بعمل إلا بعد تفكير ودرس طويلين، ولذا لبث ينتظر أخبار رفقاءه الذين سبقوه حتى إذا استوثق منها عزم على السفر وتوكل على الله، وكان يريد دراسة الاقتصاد السياسي والعلوم المالية.

وكذلك سافر تلك السفارة الطويلة، ولعله بذلك كان أسعد حظاً من الأحياء. وبذلك انتهت حياته القصيرة كالوردة تذبل ولماً ينقض الربيع، وكالشمس تكشف ولما ينتصف النهار!

وهكذا تنتهي ترجمته ولا مندوحة لي عن القول إن الفقيد كان لطيف العشرة حلو الحديث، وكان له أفكار وآراء صائبة في كثير من الأحيان، وكان يُشاهد به بعض التطرف في آرائه.

لعلي قمت الآن بواجبي من ترجمته التي عاهدت نفسي على كتابتها ذكرى له بعد وفاته رحمه الله.

ومما يذكر بالشكر والثناء همة حضرات أعضاء لجنة احتفال تشييع جنازة فقيد العلم المرحوم محمد أفندي إبراهيم زويل، التي كان يرأسها حضرة صاحب العزة الوجيه كامل بك الحرفة وبقية حضرات أعضائها الذين أتينا على ذكر أسمائهم تحت عنوان «لجنة الاحتفال بدمنهو»، وحضرات الخطباء والشعراء والوجهاء والأعيان وأصحاب الحثيات في مديرية البحيرة. وإننا نحیی فيهم هذه الهمة العالية والأريحية السماء لما قاموا به نحو الفقيد، أثابهم الله الأجر والثواب وشكر لهم سعيهم!

(٦) ترجمة عبد الوهاب أحمد سبع

(١-٦) مولده

وُلِدَ شهيد العلم والغربة الشاب النبيل عبد الوهاب أحمد سبع في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٦ بقرية «نوسا الغيط» من أعمال مركز أجا دقهلية، وهو نجل المرحوم الشيخ أحمد البدوي سبع أحد أعيان تلك الناحية ووجهائها.

وشب الفقيد في وسط يقدس الفضيلة ويحترم المعتقدات والتعاليم الدينية، فكان طول حياته تقياً نقياً، محافظاً على أوقات الصلوات مستمسكاً بالصوم، مبتعداً عن الملاهي الفارغة والشهوات الدنيئة ... وكان كريم الأخلاق طيب القلب، سليم الطوية، حسن النية، وكان محبوباً في عائلته ومحترماً بين أصدقائه وزملائه في الدراسة.

(٢-٦) دراسته

دخل الفقيد مكتب القرية وهو في سن الرابعة من عمره فتلقى مبادئ القراءة والكتابة، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثامنة، وتجلت لوالده في وجهه أسارير النجابة ومخايل الفطنة فوجه به إلى القاهرة صحبة أخيه الشيخ عرفان أحمد البدوي سبع الطالب بالأزهر الشريف ليلحقه بإحدى مدارسها، فأدخله مدرسة القربية الأميرية، ولبت يتعلم بها حتى حصل على شهادة الدراسة الابتدائية ثم دخل المدرسة الإلهامية الثانوية ونال منها شهادة الكفاءة، ثم انتقل إلى المدرسة الإعدادية الثانوية وحاز امتحان الشهادة الثانوية «البكالوريا»، ولم يتخلف مدة دراسته في فصل من الفصول لاجتهاده وانصرافه إلى الدرس بكليته وحرصه على وقته الثمين، وكان لا يميل للعب ولا يحب الهذر ولا يماشي إخوان السوء، ولم يسمع منه أحد طول حياته كلمة تمس إحساسه أو تزرى بكرامته، وكان يرى أن خير وقت للطالب وخير ما يسرُّ نفسه هو الوقت الذي يصرفه منكباً على مكتبه منهمكاً في تقليب صفحات كتابه يذاكر درسه ويحاسب على ثواني حياته بنفسه ... ومن هذه الأخلاق والمبادئ كان سر تقدم الفقيد ونجاحه في حياته الدراسية.

ولم يقف به الحد عند حصوله على الشهادة الثانوية، بل التحق بمدرسة المعلمين السلطانية العليا ولبت بها سنتين، وفي أثناء ذلك رأى أن يدرس علم الحقوق لأنه كان ميالاً للأعمال الحرة، وقد استشار بعض أصدقائه فأقروه على ذلك. والتحق بإحدى



المرحوم عبد الوهاب أحمد سبع من «نوسا الغيط» مركز أجا دقهلية.

الوظائف بوزارة الزراعة في يناير سنة ١٩٢٠م ليتمكن من دخول مدرسة الحقوق الفرنسية الليلية.

ولكنه رأى كثيرين من إخوانه ورفقته يتأهبون للسفر إلى بلاد الألمان لإتمام دراستهم بها، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق أمانيه العلمية، وأعد أداة السفر ورَزَمَ حقائبه، ولكنه في ساعة سفره لاحظ أهله عليه الانقباض وأخذ يُظهر تردده في السفر ورغبته في تأجيله كأنه كان يقرأ صحائف الغيب بوجوده الخفي، ولكنه حباً في العلم تشجع وأطرح تلك الخيالات الوهمية وعاد طَلَّقَ المحيا وودع أهله وارتحل.

ودخل أخوه مكتبه بعد سفره فوجد ورقةً مخطوطاً فيها هذه الكلمات:

الوداع يا إخوتي! الوداع أيتها الحياة! الوداع يا مصر، يا أيتها البلاد العزيزة!
ففيك نشأت، وعلى أديمك دَرَجْتُ، ومن خيراتك اغتذيت، ومن نيك العذب
استقيت، وبسمائك استظللت، ومن هوائك استنشقت، فواجبي إذن أن أضحي

بحياتي في سبيل حياتك ووجودي في سبيل وجودك، ولا حياة إلا بحريتك يا مصر.

وبعد ذلك ورد خطاب على عائلته منه يبشرها بسلامة وصوله إلى تريستا ... ثم مضت فترة قصيرة بعد ذلك وخفق فؤاد مصر كلها لذلك الخبر المشئوم خبر الفاجعة الأليمة، وصمت صوت ذلك الشباب وطارت نفوسهم شَعَاعًا! فرحم الله تلك الآمال التي كانت تملك تلك القلوب الطاهرة!

وانتدبت لجنة الوفد المركزية حضرة صاحب العزة محمود بك عبد النبي لتعزية أسرة الفقيد بـ «نوسا الغيط» مركز أجا دقهلية، وبلغهم تعزية سعادة رئيس وأعضاء اللجنة المركزية للوفد المصري فكانت بلسماً شافياً لجرحهم البليغ، وشكروا له حسن سعيه ورفعوا لعزته آيات الشكر لتبلغها إلى سعادة رئيس وأعضاء اللجنة المركزية لما أبدوه نحو الشهداء. أمد الله في حياتهم وكل سعيهم بالنجاح!

(٧) ترجمة محمود عبد الرحمن سليم

(١-٧) مولده

وُلد شهيد العلم والذكاء المرحوم محمود عبد الرحمن سليم بقرية ميت بزو وكفر عثمان سليمان من أعمال مركز أجا دقهلية في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦م، وهو نجل حضرة الوجيه عبد الرحمن أفندي عثمان سليم من أعيان مركز أجا. وقد نشأ في أحضان والديه فشبَّ دَمَتْ الأخلاق طيب السريرة شغوفاً بالفضيلة، وتلقى مبادئ الكتابة والقراءة بقريته، ثم رأى والده ميله للعلم فأرسله وهو في الثامنة من عمره إلى القاهرة للدراسة في مدارسها.

(٢-٧) دراسته

التحق الفقيد الشاب عام ١٩٠٥م بمدرسة الحسينية التابعة للأوقاف السلطانية بجوار المسجد الحسيني فلبث فيها سنة كاملة، ثم دخل مدرسة محمد علي الأميرية ومكث بها حتى حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩١١م.

وفي تلك السنة انتظم في سلك طلبة المدرسة الخديوية فحصل على شهادة الكفاءة عام ١٩١٣م وعلى الشهادة الثانوية عام ١٩١٥م، وتاقت نفسه إلى دراسة العلوم



المرحوم محمود عبد الرحمن سليم من مركز أجا دقهلية.

الهندسية وكان شديد الشغف بها، وقد تجلّى ميله إليها أثناء دراسته بالقسم الثانوي فنشط للالتحاق بمدرسة الهندسة ولكنه لم يستطع نيل بغيته من ذلك لإخفاقه في الكشف الطبي بمناسبة ضعف إحدى باصريته.

ولكن ذلك لم يحلّ بينه وبين متابعة الدراسة، فالتحق بمدرسة المعلمين السلطانية ومكث بها عامين صرف كل مجهوده أثناءهما في تحصيل العلوم الطبيعية تمهيداً لسفره إلى أوروبا لتتِمِّم الدراسة بكلياتها، ولكن قيام الحرب العامة خلال ذلك وقطع سبيل السفر على قسّاد أوروبا أوقفه عن الهجرة إليها في سبيل العلم.

وترك الفقيه مدرسة المعلمين وانصرف إلى دراسة اللغة الإفرنسية ليهيئ نفسه لدخول مدرسة الحقوق الفرنسيّة، وقد تمكن في وقت قصير من تعلمها ومن الانتساب إلى تلك المدرسة.

ثم أشار عليه بعض صحابته بالتوظيف مع متابعة الدرس ففعل والتحق بالقسم الميكانيكي بوزارة الأشغال في يولييه سنة ١٩١٩م، وكان في مدة توظيفه القصيرة مثال الاستقامة والنشاط في العمل.

ولما وضعت الحرب أوزارها وأصبح الارتحال إلى أوروبا ميسورًا عاد لنفسه شغفه الأول بالهجرة، فأعد عدته لتلقي العلوم الميكانيكية بإحدى الكليات الألمانية، وبرح وطنه العزيز مع زملائه على الباخرة حلوان، فقطع عليه الطريق القدر المحتوم وعاد إلى الوطن مع العائدين المبكيين، ونُقل إلى بلدته في احتفال كبير لم يُشهد له مثيل في تلك الناحية، حيث دُفن بمدفن عائلته الكريمة مبكيًا على شبابه، مشكورًا جهاده العلمي وهمته العالية، أسكنه الله فسيح جناته!

وعند مواراته التراب وقف الشيخ محمد الهندي فألقى هذه الكلمة في رثاء الفقيه:

كذا فليجَلَّ الخطب وليَفدَحِ الأمر فليس لعين لم يُفَضَّ ماؤها عذُرُ

إن القلوب لتتفطر أسفًا عليك يا فقيه الأدب ويا شهيد العلم، أي عين لا تبكيك وأي نفس لا تندبك وأي قلم لا يرثيك؟ إنك يا محمود أذبت قلوبنا حشرات عليك وأشعلت أفئدتنا بنيران الحزن.

أبكي فيك الفضيلة والمروءة، وأرثي الحياء والشمم، وقد كنت أرجو أن تطول حياتك، ويتحقق أملك، فوأسفا على شبابك الغض وأخلاقك الطاهرة!

فقدناه والآمال ترجو بقاءه وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

لقد كنت أيها الفقيه العزيز مثال الفطنة، وعنوان الذكاء، وصرفت كل مجهودك في تحصيل العلوم حبًّا في أمتك وبلادك، واستهنت بالمصاعب، وهاجرت لتفوز بثواب المهاجرين في سبيل العلم، ولتوفي لمصر حقوقها عليك، ولتحقق آمالها فيك، وتحملت مشقة المهاجرة، وبعد الشقة، وفراق الأهل والوطن لتعود رجلاً تنفع مصر، فما أبرك بمصرك يا محمود!

لقد ودعناك وكنا نرجي أن يكون وداعنا لك ودادًا لا تنقطع حباله ولا يطول أمده،
وارتحتل وقلوب والديك تخفق يوم وداعك حنانًا، وتزودك بالدعوات الصالحات وترجي
لك مستقبلًا سعيدًا وحياءً طيبةً، ولكن شاء القدر أن يكون وداعك أبدئيًا ولقاؤك في
هذا العالم مستحيلًا، فوأسفاه لأيام تقصّت وساعات سلفت! وما أبعد الصبر عنا! وما
أضعف قلوبنا عن احتمال الخطب، وما أكبر مصابها فيك! تغمذك الله برحمته، وألهمنا
ووالديك من الصبر على فقدك ما يخفف آلام الحزن وفداحة المصاب!

لم يبق في قوس التصبر منزع	كلا ولا في طيب عيش مطمع
هذا هو الخطب العظيم المفزع	هذا هو الرزء الجسيم الموجع
خطب جزعنا منه عند نزوله	حق على كل الخلائق تجزع
خطب به الأكباد ذابت لوعة	وجرت كمنهل الغيوث الأدمع
أئى لنا تصفو موارد عيشنا	وفواجع الأيام دومًا تفجع
والخطب سيف سلّ في كف الردى	وقلوبنا غمد له والأضلع
إن لم تروّعنا خطوب نفوسنا	فبخطب من نصبو إليه نروع
محمود روح للفصاحة والحجا	المنشئ الفطن الخطيب المصقع
قد كان ذا قلب كطود راسخ	لكوارث الأيام لا يتزعزع
إنا نعزي بعضنا بمصابه	إذ كان آمال الجميع ونهرع
إنا نشارك بعضنا في حزننا	إذ كان روح حياتنا ونودع
إن لم تحاك النيل منا أدمع	لم تُوفه حق البكاء الأدمع
سكنت مودته القلوب ولم يزل	لوداده فيها المكان الأرفع
لما نعاه البرق في أوطانه	لم تبق عين بالبكا لا تدمع
أسفي على بدر هوى من أفقه	ونراه يُدفن في التراب ويودع
فعلى ضريح فقيدنا طول المدى	غيث الرضا من ربه لا يقطع

فسلام عليك يا محمود يوم وُلدت، ويوم درست، ويوم هاجرت، ويوم مت، ويوم
تبعث حيًّا.

نم هادئًا في أرض مصر فإنها أحسن أرض على أبنائها البررة الشهداء، ولتسبح
روحك في الخلود ما تشاء. وإنا لفقدك لمحزونون، ولولتك أسفون.

(٧-٣) شكر أسرة الفقيد لمن واسوها

كتب حضرة عبد الرحمن أفندي سليم بمركز أجا دقهلية كلمةً يقول فيها بأنه يقدم الشكر الخاص لرئيس الوفد ورئيس اللجنة المركزية وجميع الأعضاء لما أبدوه من حسن الرعاية وجميل المؤازرة والمجاملة بإيفادهم حضرة صاحب العزة محمود بك عبد النبي أحد الأعضاء لأداء التعزية.

(٧-٤) احتفال المنصورة

لم تكن المنصورة أقل استعدادًا من غيرها للاحتفال بجنائزة الشهيدين المرحومين عبد الوهاب أحمد سبع ومحمود عبد الرحمن سليم، فما كاد ينتصف نهار الأربعاء ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٠م حتى احتشد سكان مدينة المنصورة على اختلاف درجاتهم وتباين جنسياتهم في ميدان المحطة، وقد نُكِّست الأعلام في سائر أنحاء المدينة موسومةً بشارات الحداد، وارتسمت سمات الحزن على وجوه الشعب فلا تكاد ترى رجلاً أو شاباً حتى تدرك لأول وهلة أن المدينة في حزن عام، وكان الكل خاشع الطرف، مرسل الدمع. وابتدأ سير موكب الجنائزة بثلةً من فرسان البوليس، فطلبة مدارس المنصورة على اختلافها من علمية وصناعية، فمدرسة المعلمين، وكانت كل مدرسة تحمل علمها وباقات من الأزهار وصور الشهداء، ثم نقابة التجار، فالحراس منكسي السلاح، فموسيقى المجلس البلدي تعزف بأنغامها، فالجنود المشاة، فبعض الطلبة يحملون أكاليل الزهر، فنعشي الفقيدين يحملهما الخفراء وكانا ملفوفين في علمين مصريين ومجلَّين بالأزهار الغضة، وعلى كل منهما اسم صاحبه، وخلفهما أصحاب الفضيلة العلماء، فالآباء الروحيون، فقناصل الدول، فرجال القضاء والنيابة، فالأساتذة المحامون، فالأطباء، فالمهندسون، فرجال الماسون، فموظفو الحكومة، فحضرة صاحب السعادة مدير الدقهلية نائباً عن عظمة السلطان، فالأعيان، فالتجار، فطوائف العمال، فالنقابات على اختلافها من زراعية وصناعية وتجارية. وسار الموكب على هذا النظام بين الألوف المصطفة عن جانبي الطريق مخترقاً شارع إسماعيل فشارع عبد القادر فشارع الجبانة، وبلغ محطة الدلتا في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر حيث وُضعت الجثتان في مركبة خاصة أُلحقت بالقطار، وسافر جم غفير من المشيعين ومندوبون من لجنة الوفد المركزية لتعزية عائلة الفقيدين بـ «نوسا الغيط» مركز أجا بلدة عبد الوهاب أحمد سبع، ثم توجهوا لميت بزو وكفر عثمان سليمان بلدة محمود عبد الرحمن سليم، فرحمهما الله رحمة واسعة.

(٥-٧) كلمة

حضرة مندوب لجنة تشييع جنازة الشهداء المركزية بالإسكندرية التي ألقاها الأستاذ الشيخ عبد الفتاح محمد الذي كان مرافقاً لنقل جثث شهداء مديرية المنصورة وهذا نصها:

أيها السادة، بصفتي منتدباً من أهالي مدينة الإسكندرية وفضيلة زميلي المحترم الشيخ عبد السلام العسكري من علماء المعهد والمدرسين به لمرافقة تلكم الجثة جثة الفقيد إلى هنا حيث تقيم أسرته الكريمة، للقيام بواجب التعزية؛ أقف أمامكم في هذه الساعة الرهيبة أرثي رأساً من الرؤوس العاملة لخير البلاد، وأندب فتیان العلم الذين هاجروا لنصرة أمة رأوها تئن من الجهل، فأبوا إلا أن يعيشوا سعداء بالعلم وتعيش هذه الأمة سعيدة في كنفهم بفضل مجهودهم العظيم.

في ذمة الله شباباً ناهضاً، في رحمته أفكاراً نقية، في جواره نفوساً أبيّة، عالية، في جنته أرواحاً غالية.

ليس المصاب أيها السادة مصاب عائلة أو أسر معدودة، وإنما المصاب مصاب الأمة جمعاء، مصابها في شبابها الناهض، مصابها في كنزها الثمين، مصابها في ساعدها القوي، مصابها في سلاحها القاطع الذي أعدته للزمن، وادخرته للدفاع عن الحق ونصرته، لذلك ترى في كل بيت من بيوتات مصر مأتماً قائماً ودعوات منها له ورحمات متتالية، حتى لقد تنازع فيهم الشرق والغرب:

لقد قام بين الغرب والشرق مأتَم عليهم فمن ذا بالعزاء نخاطبه؟

لا تندبوا الشهداء أيها السادة، بل اذكروهم بكل أنواع الحفاوة والتبجيل والإعظام، فالتاريخ فاتح صفحاته لتمجيدهم والأمة ذاكرة لهم حسن هذا الصنيع ومقدمة لهم هذه المخاطرة، اذكروا هذه التضحية والمبدأ الذي من أجله كانت هذه التضحية تخفّ الزفرات عن قلوبكم وتزاح العبرات عن عيونكم، ونحن إن بكيانهم اليوم فإنما نبكي الأمل الذي أملناه فيهم والرجاء الذي رجونا من هجرتهم. إيه يا مصر! ما أتعس حظك! وما أنحس طالعك!

أوكلمنا نبت فيك نبت فأينع وأثمر وأخذ للعمل في سعادتك والسير بك إلى
حيث مصاف الأمم الحية والشعوب الناهضة سلط الدهر عليه سهامه ليطفئ
نوره وليسكت صوته؟! تعيسة أنت يا مصر، فما كان أحوجك إلى هذا الشباب
الغض الذي ذهب ضحية حبك وهنائك.

هاجروك ليسعدوك وقالوا حسبنا الله في علاك تعالى

إن العمل لسعادة البلاد ورفعتها أيها السادة بالاتحاد، وها قد تعانق
الهلل والصليب وأصبحنا قاب قوسين أو أدنى إلى السعادة، وقد رأيتكم جهاد
الشهداء في العلم فكان مثلاً صحيحاً وعاملاً قوياً وشعاراً لا يبلى، فسيروا في
طريقهم المحمود واحذروا التفريق. وأنتم أيها الشهداء ناموا آمنين مطمئنين
فلكم الذكر العاطر في الدنيا.

(والذكر للإنسان عمر ثان.)

والأجر في الآخرة، وإنا إن شاء الله على هديكم لسائرون.

(٨) ترجمة رمضان محمود هداية

(٨-١) مولده

وُلد شهيد العلم والشباب المرحوم رمضان محمود هداية يوم ٦ يناير سنة ١٩٠٠، وهو
نجل الوجه السيد محمود هداية من أعيان مدينة طنطا. وكان رحمه الله في طفولته قوي
الذاكرة رقيق العاطفة ميالاً للجد والنشاط، ورأى والده استعداداه لتلقي العلم فعُني به
عناية خاصة وجعله موضع التفاته.

(٨-٢) دراسته

دخل الفقيد مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بطنطا، فكان همه المذاكرة ومسابقة
إخوانه في الدرس والتفوق عليهم بالأخلاق والآداب، وما زال ينتقل من فصل إلى آخر
حتى حاز شهادة الدراسة الابتدائية وكان في أوائل الناجحين.

وألحقه والده بمدرسة طنطا الثانوية فكان موضع إعجاب أساتذته لفرط ذكائه وشدة شغفه بالانكباب على الدرس وارتشاف مناهل التعليم برغبة شديدة وإرادة قوية، وقد نال منها شهادتي الكفاءة ثم البكالوريا.

ثم استطلع والده رأيه في المدرسة العالية التي يريد الالتحاق بها، فتخير مدرسة الهندسة لشغفه بالرياضيات، وهي من دلائل الذكاء وسعة العقل، ولكنه لم يلبث بها غير سنة واحدة لأن أبواب السفر إلى بلاد الألمان كانت قد تفتحت، فرأى أن يرتحل إليها لدراسة العلوم التجارية والاقتصادية ويعود ليشغل بالأعمال الحرة، وسافر على بركة الله مع المسافرين من الشبان وكان الأمل يرفرف فوق رأسه بجناحيه ووالده يتمنى له كبار المنى لثقته بنشاطه وحبه للعلم، ولكنه لقي حقه في الطريق بين من باغتهم الأجل من شباب مصر، فعاد محمولاً على الأعناق. واحتفل بمشهدده بمدينة طنطا مع المرحوم إبراهيم أفندي العبد كما ذكر في غير هذا المكان، ودُفن بمقبرة عائلته بطنطا، فرحمة عليه رحمة واسعة.



المرحوم رمضان أفندي محمود هداية من طنطا.

(٨-٣) دمة على صديق شهيد

أي صديقي رمضان، رحلت عني إلى ديار نائية لطلب العلم فوافتك منيتك قبل أن تحقق أمنيتك، فواهاً للأيام! لشد ما تفرق بين الإخوان.

أرثيك الساعة يا صديقي ولا أملك لنفسي إلا عبرة تترقق بين عيني ونفثة تضطرم حنقا على المنايا «التي تفقد على كفها الجواهر تختار منها الجياد».

أرثيك الساعة يا صديقي وما كان يجول بخاطري أن أكتب عنك راثياً، بل كان غاية أربي أن أصوغ لك عبارات التكريم احتفاءً بمقدمك حاملاً إجازة العلم ومؤدياً لوطنك المفدى واجبك بصدق وإخلاص.

يا طالما سمعتك تتغنى بآمالك الجسام، وتتوق إلى العمل حرّاً مستقلاً وتبغض التوظف في الحكومة لئلا يسيطر عليك مسيطر، ولقد كانت آخر كلماتك لي أن اعمل لتكون محامياً حتى إذا ما أتيت بعد حين متمماً دراستي يكون بعضنا لبعض ظهيراً.

أجل أيها الصديق الداعي إلى الخير سأعمل ما في وسعي لأحيا حياة حرّة فتلك هي غايتي في حياتي، وأكبر أمنية تطمح إليها نفسي. سأذكر كلمتك يا صديقي ما حييت، وعندما تشرق عليّ شمس ذلك اليوم الذي أعمل فيه حرّاً أحمل إليك الزهر الجميل وأنتره على جدّك الطاهر أسفاً وحسرة على فقدك في غضارة الشباب وغضاضة الإهاب.

لقد كنت في حياتك خير مثال يحتذى: كنت زكي الفؤاد، طيب القلب، متوقد العزم، صادق الرغبة في العمل، لطيف المعشر، حريصاً على وقتك، ولكن الدهر لم يكن حريصاً عليك فوافاك الأجل المحتوم في غربتك وأنت أكثر ما تكون شوقاً إلى اغتراف العلم من أعذب مناهله.

ألا ليت المنون التي عاجلتك وأنت في زهرة العمر وريعان الشباب أمهلتك حتى تدرك أمنيتك التي طالما جاشت في صدرك واختمرت في فؤادك، فارتحلت عن مصر مودعاً الأهل والسكن والصحاب والوطن في سبيل تلك الغاية الشريفة، غير أنه بما يحيط بها من مصاعب ومتاعب لحق عليك قول القائل: «رب أمنية جلبت أسى ومنية».

لقد كان الاحتفال بجنازتك أنت وإخوانك الشهداء رهيماً، لبست فيه الأمة عليكم شعائر الحداد واشتراك فيه رجالها والنساء، وشبابها والشيخوخ، وكان دليلاً ناطقاً على حيويتها وتطلعها إلى الحياة الراقية. وإن مصرعكم لأكبر مشجع لإخوانكم على انتهاز طريقكم بعد أن رأوا ما رأوا من فرط عناية الأمة بواجبها حيال إحياء ذكرى شهدائها الذين تمزقت جسومهم وتحطمت أشلاؤهم في سبيل المجد الخالد والأمل البعيد، مجد

الوطن الذي يحيا بأبنائه البررة المخلصين له الحب. نعم إن مصرعكم لأسطع برهان على رغبة المصري في الحياة العلمية الصحيحة وركوبه متن الأخطار لإحراز المجد والفخر. لقد طَيرَ البرق نبأ مصرعكم إلى جميع أنحاء العالم المتحضر، فكان له في وطنكم رنة حزن مؤلة اخترقت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، كيف لا ومصابكم مصاب أليم ورزؤكم رزء جسيم؟ ولكن الذي خفف أحزاننا وألأمننا هو ذلك الأثر الخالد الذي خلّفتموه بعدكم وسمع عنه العالم أجمع، ألا وهو استشهادكم غرباء في سبيل العلم، ولولا ذلك لنال منا الأسى كل منال.

فيا أيها الشهداء الراحلون في مثل أعمار المنى، إذا اجتمعتم في روضة من رياض الجنة أو تلاقيتم تحت ظلال شجرة من أشجارها ادعوا لنا ربكم يمدنا بروح من عنده في سبيل إنجاح قضيتنا ويهيئ لنا من أمرنا رشداً.

لقد اختارك الله يا رمضان لجواره وقدّر لك أن تموت شهيداً، فتركت دار الفناء دار اللؤم والخسة والدناءة، وتركتنا على أسوأ ما يُترك الصديق، وما هي إلا قلوبنا يضيئها الحزن ويقلقها الأسى.

في ذمة الله روحك الطاهرة، وفي جوار إخوانك الذين أنعم الله عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين، هنالك تنعم بالجنة التي أعدها الله لعباده المتقين.

سلام عليك في الشهداء، سلام عليك في البررة الأتقياء، وسلام عليك يوم وُلدت ويوم مت ويوم تبعث حيّاً.

حضرة الفاضل المحترم مدير تحرير الكنز الثمين لعظماء المصريين

تحيةً وسلاماً، وبعد: فأرسل لحضرتكم طيّبة الكلمة التي كتبتها بمناسبة وفاة صديقي المرحوم «محمد رمضان هداية» في حادثة أودين؛ رجاءً نشرها في تاريخ حياة شهداء العلم والوطن.

وإني أشكركم كل الشكر على تلك الهمة الشماء التي بذلتموها في إصدار الكنز الثمين الذي ملأ فراغاً مهماً في عالم الأدب أهمله الكتاب وراءهم ظهرياً مع أنه من دواعي تقدم الأمم ونهوضها، لأنه المسبب لازدياد عدد عظمائها وكبار رجالاتها.

ولقد كتبت منذ حين كلمةً على صفحات السفور أستنهض فيها همم الكتاب للقيام بإنشاء لجنة خصيصاً للقيام بعمل تراجم لعظماء مصر، وبينت لهم أهمية هذا العمل الذي أغفله الكثيرون مستعيناً على ذلك بقلمى

الضعيف الذي لا أملك سواه، فما تحرك ساكنهم. واليوم وقد وجدت فردًا من أفراد الشعب المصري الراقي يقوم وحده بهذا العمل الجليل خير قيام على ما فيه من المصاعب فحق عليّ أن أبذل ما في وسعي للإشادة بعمله، والتنويه بفضله، وتعداد مآثره وتنبيه الأذهان إلى أهمية حياة العظماء التي هي السراج المنير الذي يهدي الناس في ظلمات الحياة. إنك بعملك هذا العظيم قد حققت أملًا من آمالي طالما تاقنت نفسي إلى تحقيقه. إن شدة إعجابي بعملكم وبقلمكم الذي ينطق عن علم غزير وفكر ثاقب وأناة وروية، هذا فضلًا عن الأسلوب الرائع الذي تكتبون به؛ ليدعوني إلى أن أفخر بكم، وأرجو لكم مستقبلًا سعيًا ونجاحًا عظيمًا في عملكم بفضل معونة مصر الناهضة التوّاقة إلى المجد المتطلعة إلى الحياة الراقية. وقد كان بودي أن أحضر لأراكم شخصيًا وأقدم لكم خالص شكري وسروري من عملكم، ولكن بما أنني مشغول الآن فقد فضلت أن أرسل لكم كتابي بما أن الحظ لم يسعدني بوصول ركابي إليكم. وسأحضر إليكم إن شاء الله في أوائل يوليو سنة ١٩٢٠ لآنتهز فرصة اشتراكي في الكنز الثمين ولأقدم لحضرتكم من المساعدات الأدبية ما يكون في مقدور شخصي الضعيف. والسلام عليكم ورحمة الله.

علي بدر

موظف بوزارة المعارف العمومية

القاهرة في ١٣ يونيه سنة ١٩٢٠م

لما احتفل ناظر مدرسة القرشية التابعة لمجلس مديرية الغربية بتأبين الشهداء ودعا لذلك أدباء وموظفي وأعيان القرشية وميت يزيد، ألقى القصيدة الآتية بعد افتتاحه حفلة التأبين، وتلاه الأدباء والتلاميذ بما أبكى العيون وفطر القلوب على أولئك الشهداء، شهداء العلم والغربة:

يا أماني مصر والدنيا عبر	كيف عدتم؟ أنجاح أو ظفر؟
كيف عدتم؟ غفر الله لكم	أأصيب القوم في الرُخْر الأغر؟

وأريع النيل في أبنائه أجفاف النيل^٤ من وقع الخبر
وذبول الزرع من فرط الأسى لشباب غاله سهم القدر؟
جف ماء النيل مما انتابه هل يريق الدمع (مكفوف البصر)؟

* * *

أصبحت آمال مصر نكبةً وكتاباً نُكِّست فيه صور
أيها الأقوام عزُّوا بعضكم في ضحايا العلم ركاب الخطر
في بدور شئت العليا لهم أن يجوسوا الغرب نيلاً للوطر
فتولوا وأمانينا بهم باسمات للرجاء المنتظر
وإذا بالبرق ينعاهم بما قد دها الآمال في عرض السفر
«صدمة في الغرب أمسى وقعها في ربوع الشرق مشئوم الأثر»
عاجل الأقمار موت كامن في حديد وبخار وشرر
ومشى المقدور في داراتهم «فتهاووا قمرًا بعد قمر»
وإذا حُمَّ القضا في نازل راح لا يمنع مقدورًا حذر
في سبيل الله والعليا وفي نمة الأوطان أبناء غُرر
في سبيل المجد ما شاء الوفا لبلاد ساءها صرف الغير
في سبيل النيل درُّ ناضر كان عقدًا للمعالي فانتثر

* * *

إن نعت برلين بالأمس «فتى»^٥ فلأودين نعت «اثنى عشر»
أن تصوني أرض أودين دماً كان للعرفان فيهم مدّخر
فلتكوني كعبة المصري إن حج غرب العلم يومًا واعتمر
فيك أودين براهين على أن مصر للمعالي لم تذر
أوصدوا الأبواب فيها فانبروا للمعالي نفرًا بعد نفر

^٤ في هذا الوقت كانت مياه النيل قليلة جدًا، حتى إن المزارعين خشيت ألا نزرع قطناً هذا العام لفوات

دور أو دورين في المناوبات دون مياه موجودة.

^٥ هو المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى.

إن شعبًا يطلب العلم ولو ناله في نيّله كل كدر
لهو شعب ناهض تُرجى له عن قريب صَوْلَةٌ بين البشر

* * *

ليس يخشى الموت منا فتية في سبيل العلم حتى لو ظهر
ليس في الصدمة يأتيك الردى إنه يأتي كلمح بالبصر
إنه يأتي إذا العمر انقضى كنت في برج مَشِيد أم حفر
قد شكرنا الله في أرزائنا وكذاك الله يجزي من شكر

القرشية

سعيد أبو الذهب

وقال هذه الكلمة التي ألقاها أحد تلاميذه:

سائلوا العلياء عن أولادها أين راحوا فسرى فيها الألم؟
إنها تبكي شبابًا ناضرًا قد ذوى أزهاره خطب أَلَمٌ
خففي يا مصر عنا واعلمي أنهم ماتوا ضحايا للهمم
واذكري أنا شكرنا ربنا في مصاب وقعه رجّ الهرم

* * *

فاحزني يا مصر حزنًا شاملاً ما انتهى المحزون إلا وابتسم
ستكوني أمةً مرفوعة الـ أقدار حالًا دائمًا بين الأمم

(٨-٤) الحفلة الأولى بالجامع الأحمدى بطنطا لثناء الطلبة

كانت يوم الجمعة ٢٢ مارس سنة ١٩٢٠ (على ما أتذكر) في الجامع الأحمدى، وقد حضر جم غفير من كبار علماء الجامع حوالي الساعة الخامسة مساءً يتقدمهم فضيلة الأستاذ الشيخ مرسى طبل شيخ علماء المالكية، فوقف فضيلته وصلى صلاة الجنازة على أرواح الشهداء، وبعد الصلاة حضر فضيلة الأستاذ الشيخ الظواهري شيخ الجامع ومعه السيد حسين القصبى. وافتتحت الحفلة بالقرآن الكريم، ثم وقف فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل أحمد أحد علماء الجامع وألقى كلمات أبكت الحاضرين، ثم تلاه حضرة زكى

أفندي قدسي واعظ الكنيسة القبطية بكلمات موجزة كان لها تأثير عظيم في نفوس السامعين، ثم تلاه الشيخ محمد عبد السميع بزجلٍ نشر في غير هذا المكان ومطلعه:

الحي يسعى في الطلب والغيب وراه مليان عجب
والدهر دا ما عليه عتب مين اللي يعتب ع الزمان

وتلاه كثير من الخطباء والأدباء، وخُتِمت الحفلة كما فُتحت بتلاوة القرآن الشريف.

(٨-٥) الحفلة الثانية في الجامع الأحمدى

كانت في ١٢ أبريل سنة ١٩٢٠ عقب حضور جثث الشهداء وقد أقامتها لجنة الوفد المركزية في طنطا، وكان ذلك في الساعة الثامنة مساءً، وقد حضرها سعادة مدير الغربية نائباً عن عظمة مولانا السلطان (المدير سعادة حافظ باشا حسن)، وقد أمها كثير من المدعوين من العلماء والقضاة والأطباء والمحامين وأعيان البلاد والطلبة، وكان رئيس الحفلة حضرة الدكتور حسن بك كامل، وسكرتيرها حضرة أحمد بك الشيخ. فوقف الدكتور وافتتح الحفلة بكلمات موجزة كان لها وقع حسن، ثم تلاه حضرة أحمد بك الشيخ بخطابة نالت الاستحسان، ثم تلاه الأستاذ نجيب أفندي الغرابي بقصيدة فيحاء، ثم تلميذتان من مدرسة ميرزا العجمي فألقتا قصيدةً واحدةً تحاورتا في أبياتهما، ثم تلاهما الأستاذ الشيخ محمد الخشن المدرس بمدرسة الأقباط بقصيدة جلية، وهنا شَغِبَ الناس بسعادة أحمد بك الشيخ لأنهم لاحظوا عليه تقديمًا وتأخيرًا في مناداة الخطباء فخرج وخرج بعض الناس ومنهم الدكتور حسن بك كامل وسعادة مدير الغربية وشيخ الجامع ولكن الحفلة لم ترتَفَضْ بعدُ، واستمر الخطباء واحدًا بعد واحد إلى أن ألقى الشيخ عبد السميع هذا زجلًا نشر في غير هذا المكان، ومطلعه:

يا مصر مال دهرك عايبٌ حكم عليك وحكمه جارٌ
وسهمه فيك كان صايبٌ والأمر للمولى الجبار

ثم انتهت الحفلة بسلام.

(٦-٨) رثاء الطلبة في حفلة العلماء بالجامع الأحمدى بطنطا

زجل

الحي يسعى فى الطلبُ والغيب وراه مليان عجبُ
والدهر دا ما عليه عتبُ مين اللي يعتب ع الزمانُ

* * *

والموت على كل العبادُ مكتوب ولا فيه حد حادُ
والآخرة للدنيا معادُ وكل شيء فيها بيانُ

* * *

وكل واحد له أجلُ محدود ولكن له أملُ
لولا الأمل ما كان عملُ واللى انكتب فى علمه كانُ

* * *

العمر مكتوب فى الكتابُ والعبد عنهُ فى احتجابُ
وكل يوم بحسب حسابُ وهو ميت من زمانُ

* * *

واللى يموت فى غربتهُ زي اللي مات على فرشتهُ
واللى تجي له منيتهُ زي اللي مات وسط الميدانُ

* * *

لكن بقى اللي يموت غريبُ ولا عنده أهل ولا حبيبُ
الحزن يبقى عليه لهيبُ ويقطع القلب الملائنُ

* * *

علشان كدا تلقى الدموعُ والنار تفتت فى الضلوعُ
على اللي ماتوا من الجموعُ شبان لهم فى القطر شانُ

* * *

ذكرى شهداء العلم والغربة

شدوا الرحيل وخذوا اللزوم واتوجهوا لطلب العلوم
أما القدر عمال يحوم خلى الأجل قرب وحان

* * *

حصل التصادم في القطار وقع وقام فيه البخار
دا شي خلى العقل طار يا منصفين فين الأمان؟

* * *

في ذمة الله الكريم يا زهرة النيل العظيم
ما حد في الدنيا مقيم ولا حد خد فيها مكان

* * *

والصبر أحسن للشباب فيه الكرامة والثواب
وكل شيء عند الحساب يظهر ويبقى في الميزان

* * *

ويبقى مولانا اللطيف ياخذ الحقوق م اللي يحيف
ما فيش قوي ولا فيه ضعيف ولا فيه شجاع ولا فيه جبان

* * *

يا مصر ما للدهر مال وكل يوم ينهب رجال
كأنه شاف نهبك حلال يا مصر ما للدهر خان؟

* * *

في كل يوم فيك خبر قاسي يفتت في الحجر
يا مصر دا القلب انكسر امتى بقى يئون الأوان

محمد عبد السميع

مدرس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بطنطا

وله أيضًا: رثاءُ في الشهداء

المذهب

يا مصر مال دهرك عايبٌ حكم عليك وحكمه جازٌ
وسهمه فيك كان صايبٌ والدهر من طبعه غدارٌ

دور

حكم عليك في أنجالكُ خطفهم الموت الخطَّافُ
كانوا حمايتك إن جالكُ من الأمم خصم وخطَّافُ
كانوا حصونك ورجالكُ وهمهم حب الإنصافُ
والدنيا دي مالهاش صاحبُ والدهر بين الناس دَوَّارُ

المذهب

قاموا وسافروا على أوروبا للعلم في بلاد الألمانِ
جاهم قضاهم في الغربِ وهم في بلاد الطليانِ
وجا الخبر ع النيل ضربة ملا البلاد هم وأحزانِ
واللي كتب أمره غالبُ والموت على العالم سيَّارُ

المذهب

حصل تصادم بيقولوا والعلم عند الله وحدهُ
والعمر ما حد يطولو لأن له مقدار عندهُ
واللي حداه أهل تعولو في موته يبقى خفيف عندهُ
أما اللي مات ولا فيش صاحبُ الدمع يبقى عليه تيارُ

المذهب

العلم فيه عز الأوطانُ وسعدها الباهي الباهرُ
واللي يموت في العلم كمانُ في الغربِ دا ميت طاهرُ
ويبقى فيه رحمة ورضوانُ وذكره بين الناس ظاهرُ
زي اللي ميت بيحاربُ ويبقى في شهدا الأبرارُ

المذهب

يا اللي سافرتم للتهذيب وكان بكم نيلنا مشروخ
دي مصر صبحت في تعذيب كل البلاد تبكي وتنوخ
ودفنكم في الأرض غريب هي البحار في الأرض تروخ؟
دا دفنكم في العين واجب علشان ما تبقولها تذكأر

المذهب

النيل عليهم صار محزون والعين بتبكي دم صبيب
والقلب بالأحزان مشحون والكبد فيه حرقة ولهيب
لو كنا ندري اللي حيكون ما كنش ضاع من مصر حبيب
أما القضا لما يطالب ما تمنعوش أبداً أحذار

المذهب

لو كنا شفنا الموت يفدوه ما كنش واحد منهم مات
ما كنش حد يقول دفنوه ونكسو ف مصر الرايات
وقالوا بالأرواح ضمنوه ما كنش يبقى في الأموات
لكن دا الموت الغاصب مالوش فدا ولا لوش أعذار

المذهب

في زمة الله العلام يا كبد مصر المكويّة
في الجنة في عز وإكرام في عيشة حرة مرضيّة
مع «مصطفى» بطل الأهرام و«فريد» شهيد الحرية
اللي قضى زمنه غايب بعيد عن الأوطان والدار

المذهب

بالله يا قبر الأبطال رحّب بأولاد الأمة
غابوا ولكن الغيب طال فيك الجهاد ويّا الهمة
فيك المروءة والأعمال فيك الشجاعة والذمة
فيك المحرر والكاتب فيك النباهة والأفكار

المذهب

يا قبر بالقلب نحيكُ	والقلب بالأحزان مليانُ
وكلنا بالروح نفديكُ	نفدي الفضيلة والإيمانُ
ومصر ويا النيل تهديكُ	كل الكرامة والإحسانُ
دنيا غرورة وكون زاهبُ	والملك لله الجبارُ

(٧-٨) نص الخطبة

التي ألقاها حضرة أحمد بك الشيخ عضو مجلس مديرية الغربية (بمدينة طنطا في الجامع الأحمدى، في حفلة تأبين طلبة العلم الذين استشهدوا بإيطاليا في حادثة القطار المشؤمة)

ما لجرحي إذا شكوت شفاء	ضِقتُ دَرْعاً فأين أين الدواء؟
كل يوم لنا من الدهر خطب	ينطوي الكرب تحته والبلاء
غير أن الخطوب ذات اختلاف	ذاك سهل وذا يضيق عنه الفضاء

أيها السادة

باسم مديرية الغربية التي تحملت نصيبها في هذه الفاجعة العظمى أقدم للأمة المصرية في شخص لجنة الاحتفال أجمل التعازي على هذه المصيبة الفادحة، متوسلاً إلى ذي العزة والجبروت أن يجعلها خاتمة مصائب مصر وأن يَمُنَّ عليها بتفريج كربتها وتحقيق أمانيتها.

وأقدم جزيل الشكر المنبعث من أعماق القلوب إلى وفدنا المفدى تلقاء عنايته برفات أبنائنا وحملها من الغرب إلى وطن يحن إليها حنين الثكلى.

أعزي الأمة المصرية في شباب ناهض ارتحل عنها للجهاد فيما يرقّيها وينهض بها من وهدهتها، ذلك الشباب الذي ودّعناه عند السفر وأتبعناه النظر وكل منا يردد قول القائل:

أيها الركب الميمم أرضنا أقر من بعض السلام لبعض
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمض

أيها السادة

إن موقفنا رهيب والباعث عليه جليل عظيم، فاعذروني إذا أقعدني فرط حزني عن الإفاضة فيه، فإن موقفًا كهذا إذا لم تلقَ فيه عصا التسيار إلى جبروت القاهرة فوق عباده والقادر على إنفاذ مراده، فقد يطيش السهم وتزلّ القدم.

أيها السادة

إن خَطْبًا وإن كان في أحوالنا الحاضرة عظيمًا فإن مصابنا في أبنائنا أعظم، ولئن قابلنا الحوادث التي مرت بنا بصبر وجَلَد، فإن هذه الكارثة قد أرهبت عنا الصبر وأذهت منا الجلد وأهاجت منا مكامن الأسى.
فإذا ما وقفنا هذا الموقف فإنما نبكي أملًا خيّم عليه سُجُف الأقدار فأخفته عن الأنظار، وعبثت به عوامل القضاء فأصبح في عالم الفناء، ولا رادّ لقضاء الله.

أيها السادة

اجتمعنا الآن لتأبين الشهداء، وما كل من مات من الشهداء. اجتمعنا لنؤيّن بررة الأبناء وذخر الآباء، اجتمعنا لنرثي من دعاهم داعي الوطن فلبّوا النداء، وراحوا ليشيدوا للعلم أمتن بناء.

اجتمعنا لنبكي من تقاذفتهم الأعاصير والأنواء، فماتوا وأسفاه في طريقهم غرباء، وكأنني بهم وقد فاضت أرواحهم إلى السماء وهم يرددون بين اليأس والرجاء: «نحن لك يا مصر الفداء.»

أيها السادة

نعى البرق إلينا أبناءنا فأسال بذلك الدماء المتجمدة على جراح أكبادنا، وأضرَم بين جوانحنا من الوجد والأسى ما الله عالم به.
ومما زادنا لوعةً وحسرةً أنهم ماتوا على قارعة الطريق، ولا من رحيم ولا شفيق، اللهم إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وعطف الشعب الإيطالي الذي خفف كثيراً من آلامنا وأحزاننا.

ذلك العطف الداعي إلى توثيق عرى المودة والارتباط بين الشعبين، فالشعب المصري يقدم للشعب الإيطالي جزيل تحياته مصحوبةً بعظيم ممنونيته ووافر شكره، ويحفظ له في أعماق قلبه جميل الذكر وطيب الأثر.

لقد مر بنا من الحوادث والكوارث ما يدك شوامخ الجبال ويفتت رواسي الأطواد، ومع هذا قد اتخذنا من الصبر قوةً ومن الجَلَد عزيمةً ومن الاتحاد والتضافر سلاحاً أَمَتْنَا به اليأس، ونرجو أن نتغلب به دائماً على كوارث الدهر فإنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس.

فهل بعد ذلك يمكن أن يقف بنا ذلك الخطب عند حد اليأس أو يقعد بنا عن متابعة السير في طريقنا المعهودة ...؟ كلا، فإن دماءنا وأرواحنا وفلذات أكبادنا كلها فداء للوطن.

ولن يُفْتَدَى الوطن إلا إذا اغترف أبناءه العلم من مناهله، وهي مع الأسف نائية لا تُدرك إلا بالتضحية واستسهال المصاعب، وحاشا أن ما حصل يوهن عزائم أبنائنا، ويقعد بهم عن السفر في طلب العلم والمخاطرة لأجله.

فإن شباننا وزهرة مستقبلنا الذين توجوا بلادهم بالأكاليل الفَخَّار يعتقدون ولا شك أن الأقدار وإن كانت لا محالة نافذة ... إلا أن الآجال موقوتة محدودة، ولكل أجل كتاب.

أيها السادة

قد جعل الله لكل شيء سبباً، والأسباب ترجع إلى مسبباتها، وقد كان سبب استشهاد شهدائنا سفرهم، وما الذي بعثهم على ذلك السفر؟

بعثهم إليه أيها السادة أن بلادهم مع الأسف لا تزال — ونحن في القرن العشرين — خاليةً من المدارس الجامعة والكليات الناجعة والصناعات النافعة، ولو كان بها ذلك كغيرها أو شيء منه لما تجشَّم أبناؤنا مشاقَّ السفر وركبوا متن الخطر.

فبالله عليكم هل رأيتم أو قرأتم أو سمعتم أن قطراً من أقطار المسكونة لا يزال عالَّةً على غيره، وعلى الخصوص في التربية والتعليم للذين هما أساس حياة الأمم؟ هذا ما لا أظن أن يكون.

ولكن لا، لا، أستغفر الله! فإن مصر المنكودة الحظ — على خصب تربتها وعذوبة نيلها ووفرة أموالها وضخامة ميزانيتها وكثرة سكانها — لا تزال وحدها فقيرةً في مدارسها، ناقصةً في تربيتها، تضطرها الحاجة إلى المخاطرة بأبنائها فتقذف بهم إلى الخارج لارتشاف العلوم من مناهلها العذبة، وقد كانت المصيبة نتيجة ذلك السفر. فهل لهذا الحال يا سادتي من آخر؟

أيها السادة

يؤسفني ويؤسفكم، ويؤلني ويؤلكم، بل ويديمي قلبي وقلوبكم أن مصر المحبة لأبنائها الغنية بشبانها كانت هي على الرغم منها سبباً في فقد اثني عشر كوكباً من كواكبها ... وقد كانت تعدهم للاستضاءة بنورهم بعد أن يتمموا علومهم، فمصر هي المسؤولة عن هذا الخطب الجسيم.

إننا بتهاوننا في أمورنا ورضائنا بما أوجب تأخرنا وانحطاطنا كنا سبب هلاك أبنائنا! فمسئولية الحادث واقعة علينا ونحن عنه إذن مسئولون.

أيها السادة

إن العلم واحد في كل مكان كذلك العقل، فلماذا لم نحصل على قسطنا من العلم؟ يتهموننا بالجمود والتقصير، ولو عدلوا لعرفوا أننا لم نقصر في طلب العلم، وإنما قد حُرِّمنا أسبابه ووسائله، ورغماً عن هذا الحرمان دَفَعْنَا حبنا للكمال اقتداءً بأجدادنا العظام أن نهاجر في طلبه ونخاطر بأرواحنا للحصول عليه، وأكبر برهان لدينا أن العطاش من شبابنا حينما لم يجدوا في بلادهم من موارد العلم ما يشفي غُلَّتْهم ويروي ظمأهم، ولَّوْا وجوههم شطر بلد أَيْتَعَ فيه غراس العلم نازحين عن بلد متعطش إلى موارد

العرفان أطفأت مصابحه يد الرغبة في تأخره وإذلاله ودوام استعباده، وكل منهم أمل أن يعود إليه سراجاً وهاجاً يُسْتَضَاءُ بنوره، ولكن قُدِّرَ فكان ولا راداً لما أَرَادَهُ اللهُ. ولئن أطفئت تلك المصابيح قبل أن يتم نورها، فإن انطفائها يشعل في طيات القلوب ناراً تتأثر للعلم.

أيها السادة

يجب على العاقل أن يتعظ بالحوادث ويستفيد منها، وخير ما يجب أن نعود به من موقفنا هذا بعد الاستسلام لله على قضائه وقدره، هو عامل الثأر للعلم ولن يُثَارَ للعلم إلا بالعمل على محو الجهالة، ولا تُمَحَى الجهالة إلا ببذل المال والتضحية وحمل النفس على الترحيب بالخطر في سبيل إنقاذ البلاد من الجهل، فعلى الآباء بذل أموالهم لإيجاد المعاهد الكافية للعلم في بلادهم كما هو الحال عند غيرهم، وعلى الأبناء أن يندفعوا في تيار تحصيله مهما أودوا في سبيله لِيَتَوَجَّوا بأكاليل الفخار، أو تُنْقَشَ أسماءهم بعد موتهم في سبيل إنقاذ بلادهم من الجهل على قلوب أفراد أمتهم بحروف لا تقوى على محوها يد الزمان.

أيها السادة

حقاً إن مصر بلاد العجائب، فإن الشمس لا تكاد تشرق فيها إلا على جديد من الحوادث والكوارث، وكأني بالأيام وقد آلت على نفسها أن تعطينا في كل وقت درساً جديداً لا ننساه ما دبَّ فينا دبيب الحياة.

وإننا وإن لم نجنِ على الأيام ما يدعو إلى ذلك الانتقام، فإننا قد مكثنا غارقين في بحار الغفلة أعواماً مخدرين بـ «مورفين» التواكل والتخاذل سنين وأياماً!

فهل لنا بعد ذلك أيها السادة أن نهبَّ من غفلتنا ونعمل ما يطفئ غُلَّتْنَا ونسعى لعمل ما يرقِّي بلادنا ويحررها من رِبْقَةِ الجهل؟ ذلك ما أرجو أن يكون إن شاء الله تعالى.

أيها السادة

ليس هذا بالصعب علينا بل إنه في قدرتنا وفي طاقتنا الحصول عليه بفضل اتحادنا ووئامنا وسر تضامننا وتضافرنا، وبهذا نحيا حياة المُسْعَدِينَ ونعيش عيشة الأحرار المستقلين.

ففي ذمة الله — أيها السادة — تلك النفوس الطاهرة التي جنينا عليها باستسلامنا وتواكلنا.

وفي وديعة الله تلك الآمال الكبار التي أضعتها.
وفي رحمة الله تلك الكواكب التي واريناها. وإنا لله وإليه لراجعون.

(٩) ترجمة إبراهيم أفندي السيد العبد



المرحوم إبراهيم أفندي السيد العبد من شبرا النملة.

إن مسئولية المؤرخ خطيرة الشأن عظيمة الأهمية، إذ يدعو واجبه التاريخي دائماً إلى البحث والتنقيب وراء الحقائق والتثبت منها لأنها دستور يقتضي أثره أبناء هذا

العصر والأجيال المقبلة. وبما أننا قد تصدينا لوضع تواريخ شهداء العلم والغربة وبذلنا كل مجهودنا في الحصول على تراجمهم من أسرهم وأصدقائهم بطريق النشر في الصحف السيارة وبكافة الوسائل الأخرى، ولسوء الحظ بذلنا قصارى الجهد في الحصول على ترجمة المرحوم إبراهيم أفندي السيد العبد فلم نوفق لذلك، وقد أرسلنا خطاباً في ١٥ يوليو سنة ١٩٢٠ إلى حضرة سليمان بك العبد أحد أفراد هذه الأسرة الشهيرة بشبرا النملة، وأردفناه بخطاب ثانٍ تاريخه ٢٧ يونيو سنة ١٩٢٠ وكذا خطاب ثالث في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٠، وأفهمناه ضرورة إرسال التفاصيل الخاصة بفقيدهم وبيئاً له أمرنا من هذا الكتاب دون أن نكلفه بدرهم ولا دينار؛ فأبى علينا الرد، وقد تسرب إلى ذهننا أن ابنه أكبر عامل على تخليد مآثر والده فبعثنا إليه بخطاب تاريخه ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٠، فلم يتكرم بالرد ولو على سبيل المجاملة في الأمور التحريرية؛ ولما رأينا أنه لا مندوحة من أن نذكر كلمة عن المرحوم إبراهيم أفندي العبد وإن كان ابنه وذوو قرابته أبوا علينا ذلك فنقول:

وُلد المرحوم إبراهيم أفندي السيد العبد في بلدة شبرا النملة، ومات في حادثة القطار التي استشهد فيها مع طلبة العلم، وكان مرافقاً لابنه عبد الحميد أفندي العبد لإدخاله إحدى كليات ألمانيا، وكان أشد تأثيراً على النفس أن المرحوم إبراهيم العبد قد حال القضاء بينه وبين ابنه، ولكن الأب استطاع وهو يجود بنفسه الأخير أن يخاطب ولده مشجعاً بوضع كلمات شدت عزمه وفتحت له منفذاً إلى الحياة، وقد ذهب إلى رحمة ربه مؤقتاً بسلامة ولده فمات عن إحدى وخمسين سنة. أخبرنا بعض محدثينا عنه أنه من عائلة عريقة قضى عمره في الاشتغال بالأمور التجارية والزراعية بجد واجتهاد، وفي هذه السفارة الأبدية كان يرغب أن يجلب بضائع للتجارة حتى يسد حاجات مواطنيه، وكان نقي السيرة طاهر السريرة. رحمه الله وأسكنه جنة الخلد!

وقد عثرنا على هذا التلغراف منشوراً في إحدى الجرائد وهو مهمل من الإمضاءات، وهذا نصه:

إلى رئيس لجنة الوفد المركزية: حسن عزائكم وعطف معالي الرئيس المحبوب وحضرات أعضاء الوفد خُفِّ كثيرًا من أحزاننا بوفاة المرحوم إبراهيم أفندي العبد. أبقاكم الله ذخراً للأوطان، وكلل جهادكم الشريف بالنصر والنجاح.

(٩-١) احتفال طنطا بجنازة المرحومين إبراهيم أفندي العبد ورمضان أفندي

هداية

أصبح ظل الأحزان مخيمًا على مدينة طنطا، فالوجوه عابسة والدموع تترقرق في العيون والقلوب مكلومة والزفرات تتصاعد من صدور يمزقها الأسى بتلك الكارثة. وقد رُفعت الأعلام منكسّة في كل مكان مجلّة بالسواد، وكان الأهالي ينتظرون بالخشوع ساعة الاحتفال بتشييع جثتي المرحومين إبراهيم أفندي العبد ورمضان أفندي هداية، ففي منتصف الساعة الرابعة كان كل فريق من المشيعين في المكان الذي أعدته له لجنة الاحتفال.

وفي الساعة الرابعة أقبل سعادة مدير الغربية مندوبًا من قبل مولانا عظمة السلطان، وبدأ سير الجنازة من المحطة على الترتيب الآتي: موسيقى المجأ العباسي - قوة من البوليس البيا - فرقة الكشافة - موسيقى علي أفندي حسن - طلبة الجامع الأحمدى والمعهد العلمى - مدرسة المعلمين الأولية - طلبة المدارس الثانوية، فالمدارس الابتدائية، فمدرسة الفرير، فالاتحاد الإسرائيلي، فموسيقى حافظ أفندي يوسف، فمدرسة البنات، فحَمَلَة المباخر والزهور، فنعش الفقيد مرفوقين بالأعلام المصرية يحملهما فريق من طلبة مدرسة طنطا الثانوية، ويتبعهما أهل الفقيد، فالعلماء، فالرؤساء الروحانيون، فرئيس وأعضاء لجنة الوفد بطنطا، فالقضاة، فالمحامون والأطباء ونظار المدارس والمدرسون والمهندسون ورجال الصحف، فوفد من الإسكندرية، فالجاليات الأجنبية ومنها الجمعية الخيرية الإيطالية التي قدمت إكليلاً من الزهور لوضعه على القبر، فموظفو الحكومة، فالأعيان، فرئيس وأعضاء الغرفة التجارية، فالتجار، فنقابات العمال على اختلافها. وسارت الجنازة من المحطة إلى شارع المديرية، فالبورصة، فالحان، فالسكة الجديدة، وهناك أُقيمت صلاة الجنازة في الجامع الأحمدى. وبعدها انفصل فريق من المشيعين لمرافقة جثة المرحوم إبراهيم أفندي العبد إلى بلدته شبرا النملة، يتقدمهم عبد الحليم بك ناشد مندوبًا من عظمة السلطان وحضرنا نجيب بك الغرابلي وأحمد بك الشيخ منتدبين عن لجنة الوفد المركزية.

ثم استمرت الجنازة من السكة الجديدة إلى شارع الصاغة فالجبانة حيث وَاوًا جثة رمضان أفندي هداية التراب. وكان الموكب يسير بتمام النظام تحف به المهابة والإجلال، والمشيعون مطرقون احترامًا لجلال الموقف الرهيب.

وقد أُقيمت حفلة تأبين في منتصف الساعة التاسعة مساء ١٠ شعبان سنة ١٨٣٨ بالجامع الأحمدي، حيث خطب الدكتور حسن بك كامل ونجيب بك الغرابي وأحمد بك الشيخ وإبراهيم بك جلال القاضي ومحمد أفندي عبد الرازق والشيخ علي عبد الحليم من الإسكندرية وآخرون، وقد أثبتنا لحضراتهم في غير هذا المكان بعض مراثيهم. تغمد الله الشهداء بالرحمة والرضوان، وألهم الأمة المصرية الصبر والسلوان!

(١٠) حياة المرحوم فريد فتحي رزق الله بقلم صديقه الحميم حبيب أفندي غبريال

(١٠-١) حياته الدراسية

وُلد الفقيد في بلدة «الشيخ زين الدين» من مركز طهطا. ولما بلغ فريد أشده دخل مدرسة الأقباط بطهطا إلى أن صار في الحادية عشرة من عمره، وما زال منكباً على الدرس حتى حصل على شهادة الدراسة الابتدائية من المدرسة الإنجيلية بطهطا عام ١٩١٤، ثم التحق بمدرسة الأقباط الكبرى بالقاهرة واستمر فيها حتى حصل منها على شهادة الكفاءة. وبعد ذلك التحق بالمدرسة السعيدية، وكان أثناء وجوده بها يشكو دائماً ألم الصداق لذلك حال ضعف صحته دون نجاحه في البكالوريا سنة ١٩١٨، فأعاد الكرة سنة ١٩١٩ ولكنه لم يتقدم لامتحان لأنه كان قد عقد النية على السفر.

(١٠-٢) عزمه على السفر

وفي سنة ١٩١٩ كثرت الاضطرابات بين الطلبة وتعطل العمل في كثير من المدارس، فعزم فريد على السفر إلى الخارج لتتيمم دراسته، فحالت والدته دون ما كانت نفسه طامحة فيه، فكانت كلما ذكر أمامها رغبته في الهجرة لنيل العلم تقابل ذلك بالبكاء والنحيب، ولا غبار عليها في ذلك فلم يكن لها بعل يهتم بأمرها ولا ولد ثان تطيب به نفسها. وهنا تجلت في فريد روح وطنية سامية، روح يندر وجودها اللهم إلا في نفر قليل من الشبان، كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «أنا بين عاملين، كلما ذكرت أمام والدتي أنني سأسافر للخارج تمرض وتذوب حزناً فتكاد تثني عزمي وتببط همتي، وإذا بي في النزاع الأخير أسمع صوت أمي العزيزة مصر تناديني إلى الواجب فأمتلئ أملاً وحياءً وقوةً ونشاطاً.

وعندي أن والدتي لو قضت حسرةً على وفاتي وقضيت أنا حزنًا عليها لطابت نفسي أن
نقدم أرواحنا عن طيب خاطر تضحيةً للواجب نحو الوطن، فهل رأيت أو سمعت قبل
اليوم عن ابن أمين رضع من ثديين تتنازعه العوامل كما تتنازعن؟»



المرحوم فريد أفندي فتحي رزق الله من طهطا.

ثم طلب مني ذات يوم أن أصحبه إلى منزل أحد المرسلين الأمريكيان لنستعلم
منه عن أنظمة الدراسة بأمريكا وتكاليف المعيشة فيها، ولما لم يكن صديقنا على شيء
من المعلومات اللازمة أرشدنا على الفور إلى جناب الدكتور جورج ف. فريمين القائم
بأعمال الجمعية الزراعية السلطانية، فأكرم الرجل وفادتنا وحبّد الفكرة من فريد وأثنى
ثناءً مُستطِيبًا على نصحه العالي ولا سيما لأنه هو بنفسه قد سبق فريداً في تعشق
هذا الفن الجميل. ثم أخذ الرجل على عاتقه مخابرة جامعة Guscoa في الموضوع،
وهذه الجامعة موجودة بولاية أريزونا في جنوب ولايات أمريكا المتحدة، فلبت الجامعة
بسرعة طلب الدكتور وأرسلت إلى فريد مجلداً ضخماً شاملاً لجميع البيانات اللازمة
فيما يختص بأنظمة الدراسة المختلفة وتكاليف المعيشة من مأكل وملبس ومسكن. فلما

اطلع عليه مال بكليته إلى الجامعة وصبت نفسه إليها، وكان يفضلها على غيرها لفكرتين جوهريتين:

الأولى: أن هذه الجهة من أمريكا هي بلاد زراعية محضة مشهورة بمحاصيلها القطنية والقمحية وما شاكل، ذلك لهذا أنشئت فيها الجامعة المذكورة. وكان فن الزراعة في المدرسة الأولى من فروع الدراسة بها، ويوجه إليه اهتمام خاص من الحكومة والشعب على السواء.

والثانية: أن تشابه مناخ تلك الولاية بمناخ مصر يجعل طرق الزراعة في كليهما متقاربة إن لم تكن متماثلة تمام التماثل.

لهذين السببين صمم فريد على السفر إلى أمريكا ليتلقى هذا الفن الجميل الذي كان مولعاً به ولع محب الطبيعة بالزهور والرياحين والخضرة وما شابه ذلك. وهنا قامت معضلة أخرى في وجه فريد، فقد ارتفعت قيمة الدولار إلى درجة مدهشة حتى بلغت حينذاك اثنين وثلاثين غرشاً صاعاً للريال الواحد، ثم تضاعفت أجور السفر، فماذا يعمل فريد أمام إirاده الصغير المحدود؟ مع كل ذلك لم يحفل فريد ولم ينكص إلى الوراء، إذ قد حَزَمَ الأمل بين جنبه حزاماً حامياً. لقد بذل فريد جهداً فوق طاقة شاب أن يقوم به منفرداً في الحصول على تصريح للسفر حتى حصل عليه بعد جهاد ثلاثة شهور تقريباً.

(١٠-٣) النقطة الفاصلة

في حياة كل إنسان نقطة فاصلة، نقطة الاختيار العظيم، ما أخرج الإنسان في ذلك الحين! وما أشد كربته في أفكاره وخيالاته! ففي ذلك الظرف العصيب ساعة أو دقيقة أو لحظة ... عليه أن يقول قوله النهائي وينطق بكلمته الفاصلة.

وبعد، فإلى القوة أو إلى الضعف، إلى السعادة أو إلى الشقاء، إلى الحياة أو إلى الموت، إنها لأزمة خطيرة يقف فيها الإنسان — مهما كان مقامه — مبهوًتاً حائرًا لا يدري إلى الشرق يتجه أم إلى الغرب، إلى الشمال أم إلى الجنوب؟

غير أن تلك القوة الصمدانية التي تخترق الظلمات وتنظر من وراء السحاب، التي ترقب أعمال الناس وتُسَبِّرُ العالم بين أزلية من محبة ونار، تلك القوة عينها هي التي تحرك هذا المخلوق الحقير إلى حيث قضائها المحترم وأمرها غير المردود، فما لَفَظَ امرؤ إلا مشيئتها ولا قال إلا إرادتها ولا امتثل إلا لأمرها، وهذا ما جرى لفريد.

(١٠-٤) تحول عزمه عن السفر إلى أمريكا

دعوته قبل سفره بثلاثة أيام لسماع محاضرة ألقاها محمود بك عزمي المحامي عن الديمقراطية، خرج فريد من تلك المحاضرة بحالة نفسية جديدة ظننتها في بادئ الأمر تردداً وضعفاً فإذا هي وحي أوحى إليه، لست أدري أمن مَلَك كريم أم من شيطان رجيم أن يحول دفة مسيره إلى ألمانيا لا إلى أمريكا، وقد عزَّه على ذلك رخص المعيشة في الأولى الذي كانت تذييعه بعض الجرائد حينذاك بشكل بديع خلاب، وكذلك تدفق الشبان في ذاك الحين على ألمانيا تدفقاً هائلاً.

جميل كل هذا يا فريد، كله نافع ومحبوب، علم واقتصاد، ولكن لم تكن هذه فكرتك الأولى فما الذي طرأ على نفسك في اليومين الأخيرين قبل سفرك؟ وأية قوة كانت هي القاضية على عزمك الأسبق؟ لم يكن ذلك لأن هنا انتصاراً ووفراً وهناك إسراف وتبذير، لم يكن ذلك لأن هنا إخواناً كثيرين وأصدقاء عديدين وهناك لا شريك ولا رفيق، لم يكن ذلك لأن هذه قريبة دانية وتلك بعيدة نائية، كلا، لم يكن شيء من ذلك، بل هو حظك التعس يدعوك إلى حتفك ونهايتك المرة تناديك إلى يوم نحسك.

(١٠-٥) وفاته

هكذا كان، وسافر فريد مع إخوانه على ظهر الباخرة حلوان في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٠، ولم يمض على سفرهم بضعة أيام حتى جاءنا البرق بذا الخبر المشؤم، وإذا باسم فريد بين قائمة القتلى، فواحر قلباه.

(١٠-٦) أخلاقه

الاستقلال الفكري: كان فريد على شيء كثير من الاستقلال الفكري وحرية الضمير مع راحة في العقل لا يشوبها طيش الشباب، ولعل منشأ ذلك يرجع إلى وفاة والده، فلم يكن لأحد أن يسيره في شيء بل كان هو محتدئ في كل أعماله، فحصل بين التجربة الانفرادية والخبرة الاستقلالية على ما أذكى عقله وفؤاده وأحكم خطواته في كل أعماله، ظهر أثر ذلك في حياته المدرسية فكان يتخذ لنفسه من المدارس والأصحاب ما يروق في نظره، وطالما كانت نفسه تتألم من نظام التعليم بالمدارس التي وُجد فيها من حيث التضيق على حرية الطلبة، وكان يعتقد أن أولى الشأن يتعمدون تربية الناشئة على

الاحترام الأعمى لرؤسائهم بوضع نظام الطوابير وتحريك الطلبة تحريكاً ميكانيكياً في الدرس والأكل على غير جدوى وبغير إرادتهم وبإكراههم على تأدية التحية لهم في المدرسة وفي الطرقات، فكان فريد يكره ذلك ويظهر من العصيان والغطرسة ما حدا ببعض المدرسين أن يتهمة بالكبر.

كان يكره الأنظمة القهرية ويمقت التوظيف في دوائر الحكومة جهد استطاعته. وكثيراً ما كنا نترى معاً في حقول الجيزة، فكان يُعجب بالطبيعة والزهور والنبات أَيْماً إعجاب ويحسد الفلاح على حرّيته وهو في الغيط طليقاً حرّاً، ولذلك صمم على دراسة فن الزراعة إتماماً لبغيته.

الإخلاص في المعاشرة

كان فريد مخلصاً في معاشرته، فإذا أحب صديقاً مال إليه بكل جوارحه وأخلص له في سره وعلايته، ليس للتجمل أو الرياء منفذ إلى صدره، وسرعان ما كان يسلم لروحه وفؤاده بغير تكلف لكل من طلب وده فكان يحب كل معارفه على السواء والكل به وله، ذلك لما طُبِعَ عليه فريد من الدعة وظريف الشمائل.

الثقة بالذات

كان فريد شديد الثقة بنفسه، ولكنه رغم وقوفه برجاجة عقله كان لا يستنكف من المشورة في كل أموره سعياً وراء نجاحه. علم أن صديقاً له موظفاً بوزارة الحربية نُقل إلى بحر الغزال في جنوب غرب السودان على مسيرة خمسة وأربعين يوماً من مصر، فبعث إليه يحضه على الامتناع عن السفر، فأجابه أن الذي حُبب إليه السفر إلى تلك الجهات النائية هو أن مرتبه سيبلغ الضعف تقريباً، فوقعت هذه الفكرة عند فريد موقع السخرية والاستهزاء، وكتب إليه يقول: «لو كانت ثقتك بنفسك شديدة لعرفت أنك لن تعدم حيلة في كسب أضعاف مرتبك أنى شئت.»

الاقتصاد

كان فريد يحب الاقتصاد ويضع الشيء في موضعه، ولم يُعقه ميله للاقتصاد عن القيام بالواجب، حتى لتخّاله في كثير من المواقف كريماً في البذل عن سخاء وطيب خاطر.

(٧-١٠) مرثية ألقاها على قبر فريد حاضرة صديقه الحميم الكاتب الأديب حبيب أفندي غبريال

أي فريد، ها قد جئنا لنزورك وأنت في مرقدك الهادئ فاستيقظ يا فريد من نومك لتحيا
إخوانك القادمين إليك، قم وامد إلينا يديك الطاهرتين فقد حَقَّ علينا أن نقبلهما بحرارة
ولهف. ولكن لا، لا، فكن في مكانك بعيداً عنا ولتبق روحك في ذلك المقام العلوي، فما
كان للطهارة أن تمس الدنس، وما كان للنور أن يقترب من الظلام. أي إخواني، في ليلة
البارحة بينما الناس في سُبَات عميق طلبت فريداً، ولكن وأسفاه طلبته فما وجدته!
قالوا لي لقد خرج إلى الحقول، هنالك وجدت الوردة تبسم للنسيم والزُنْبُقَة تقبل
شعاع الشمس، أما هو فقد طلبته فما وجدته.

قلت في نفسي لعل فريداً يتقيأ للال الأشجار التي على ضفة الغدير، فأسرعت إلى
هناك وكلي أمل في لقيه وبنفسي حنين إليه كحنين الأخ إلى أخيه، هنالك سمعت هفيف
الريح وسمعت خرير المياه، وسمعت هدير الطيور تغني شجناً.

يا الله! كأنني أسمع صوتاً ظافراً فوق الجبال، قافراً فوق التلال، هابطاً إلى الوديان،
وإذا بالصوت الذي كنت أسمعُه قد اختفى، واستحالت الحركة إلى سكون عميق. فتشت
على فريد وقلبي منكسر ونفسي ملانة حزناً، ولكن واحزنه طلبته فما وجدته!

يا ربي أين ذهب فريد؟ ومن يعرف أين هو؟ وإذا بصوت خافت يرد عليّ قائلاً:
أيتها النفس المضطربة، اسألي الأمل فهو يعرف أين مستقر الحبيب، اسألي السفينة التي
تمخر العُباب كالسهم، اسألي الجبل الذي يطل بعظمة واستكبار، اسألي الطبيعة القاسية
المتسلطة على الأرواح، اسألي ذلك السهل التعس حيث سقط حبيبك مع إخوته التعساء
حيث صعدت روحه الطاهرة ترفرف كالحمامة إلى ربها.

أيتها السفينة القادمة من شواطئ إيطاليا تحملين في جوفك رفات صديقنا المحبوب،
أسرعي به إلينا، إلى هنا، إلى وطنه الذي كان يحن إليه، إلى بيت أمه وأبيه، إلى إخوته
النائحين عليه. أطفئي أنوارك أيتها السفينة، قفي أيتها السحب، واهدئي أيتها الرياح،
واسكني أيتها الطبيعة ورافقي فريداً في سكونه، في نومه، في راحته.

ما لك يا فريد؟! تجفل كلما دنوت منك! ماذا جنيت حتى تقابلني بهذا الجفاء؟!
لقد ناديتك حتى بُحَّ صوتي فلم لا تبدي جواباً؟ ألا تسمع زفيري؟ ألا تخترق مسمعك
الطاهر كلمات جزعي؟ ألا تصل إلى قلبك الناصع نبضات نفسي...؟ لقد كسرت قلبي يا
فريد ببعدك عني، حتى لقد سقط رأسي إلى التراب وتبللت عيني بالدموع، واحترق قلبي
بلهب اللوعة.

أين أنت الآن؟ أين يدك الطاهرة لأمسك بها وأدنيها إلى صدري؟ أين وجهك الصبوح الذي يتألق فيه نور القمر؟ أين ثغرك الباسم الذي يشبه وردة دائمة الفرح أبدية الانشراح؟ أين عيناك البراقتان اللتان يتألف منهما نور الحياء الخالص وقوة الشباب؟ أين منطلقك العذب الذي يقطر شهدًا؟ أين قلبك الناصع كالثلج اللامع كالبُلُور الصافي كشعاع الشمس؟ أين روحك الطاهرة المشبهة بدعة الملائكة وطهارة أبناء السماء؟ أين ذهب يا فريد كل هذا؟ أهو في جوف الأرض يخبئه عن نواظرنا التراب؟ كلا، ثم كلا، فحاشا للكمال أن يُدْفَن! وحاشا للطهارة أن تُقْبَر! إن مكانك لفي أسمى طبقات السماء وكأنك بين يدي ربك الذي أحبك أكثر منا فأخذك صغيرًا ليقربك إليه ويدنيك إلى عرشه، فسلام عليك حيث أنت الآن، وسلام على روحك الجميلة.

إن جسمك الغصن، وعودك الرطب، فهنا يا فريد في هذه البقعة الضيقة، في هذا المكان الموحش، حيث لا يُسمع صوت سوى صوت هفيف الريح ممتزجًا بترنيمه الحزن والأسى ترددها بعض العصافير التي ترفرف بأجنحتها فوق ضريحك المقدس. هنا حيث لا شريك ولا أنيس ولا حبيب ولا جليس، هنا حيث يسود السكون الدائم فيملاً النفس هيبة وجلالًا، ويخيم ظل الموت فتجمد منه العواطف رهبةً وخشوعًا.

هنا في وسط هذه الأضرحة الصامتة نودع يا فريد رفاتك الطاهرة، نودع وردة الصباح الياضعة، نودع أملًا عاليًا ونفسًا كبيرةً.
أملًا؟! أه ما أحلى الأمل وما أمره!

فهو زهرة الربيع التي تنعش النفس وتملؤها رحبًا، وفي الآخر تذبل ويذهب عنها جمالها.

هو تلك القوة الروحانية التي تبعث في الإنسان روح العزيمة والصبر والمثابرة ثم تتركه في منتصف الطريق.

هو ذلك السراب الذي يغري الإنسان على تحمل مشاق الأسفار بحرًا وبرًا وتجشُّم المخاطر بردًا وحرًا ومواجهة الكارثات والمصاعب، وإذا به عنصر منحل في ذاته لا يروي غليلاً.

هو ذلك الجمال الشعري الذي يغمر النفس حينًا ثم يتركها تحت رحمة وحدتها وعذابها.

هو ذلك الظل الذي يبتعد دائمًا عن النور ويهرول مسرعًا إلى أم الظلمة. نعم، هو الحياة، بل هو الموت.

ذلك هو الأمل يا إخواني، الذي من أجله ينام فريد نومًا هادئًا.
أي أخي، البارحة تركتنا حزينًا باكياً يخفق قلبك مع مندليك لفراق بلادك ووطنك
المحبوب. البارحة كتبت إليّ وما أحلى كلماتك وأعذب روحك! إن كل الجمال الذي رأيته
في سفرك والمناظر البديعة التي تمتعت بها في طريقك إلى حتفك، كل ذلك لم ينسك
فراق إخوانك ولم يخفف آلامك في غربتك، فما هذه الحلاوة يا فريد التي تقطر من فمك
العذب؟! وما هذا الحياء الذي يتألق فوق جبينك؟!

أي صحي، وقوفًا أمام هذه الحقيقة المرة، خشوعًا أمام هذا المنظر القاسي، وهل من
منظر أشد على النفس وأكثر إيلامًا للعواطف من ضياع شاب صغير ونافع ومحبوب؟!
نعم، صغير، فما تُرى غرض الموت من فعلته القاسية؟! ونافع، فما تُرى قصد الإله في
إصدار هذا الحكم الرهيب؟! ومحبوب، فما عسى أن تكون هذه التصاريح الشديدة؟!

لقد ذهب فريدنا بين من ذهبوا، لقد راح ضحية الأمل العالي فخلف لنا الألم
المستديم، ليت تلك الساعة لم تكن التي جاءنا فيها ذلك النبا المشؤم! وأنت أيها السهل
الذي سقط عليك فقيدنا وإخوته الأبرياء، ليذهب عنك الجمال، ولينقطع عنك الظل
والمطر، إذ عليك هلك هذا البريء، وفوق بطاحك تناثر جسمه الغض كما تتناثر أوراق
الأشجار أمام ريح الخريف القاسية.

إننا نحزن ونبكي ذلك لأننا نحب، أليس تأثر العواطف هو مقياس المحبة؟ أوليس
روح ذلك التأثر هي دليل على روح تلك المحبة وجوهرها؟ وهل يُسكب دمع إلا لعزيز؟
إذن فلتتمسك المحبة بالحزن وليقبل كل منهما الآخر لئلا يهلك الاثنان معًا.
يا قلبي، لقد فقدت شيئًا، نعم، فقدت شيئًا عزيزًا، فقدت سرورًا كان لك في سِنِكَ
الغابرة، خسارة فادحة لا يعوضها سوى الدموع، ولا يخفف تأثيرها سوى البكاء.

أيها المنزل الذي كان يقطنه فريد، ما لك مكتئبًا حالًا؟! لقد تعودت أن أقف أمام
بابك نابض القلب مهتز العواطف منتظرًا تلك اليد اللطيفة التي لن أعود أمسك بها بعد
اليوم. أه! ما أشقائي وما أكبر تعاستي! لقد تركني النوم ورجب النعاس عن عشتري،
وكمجرم أثيم أراني أهرب كل ليلة إلى مخدعي لأحزن على جرمي وأستغفر ربي.
أين ذلك النور الذي كان يتلألأ فيك أيها البيت التعس؟ ما لي لا أرى بك سوى ظلام
دامس؟! لقد انطفأ النور، لقد ولّى القمر، لقد اشتد الحلك، وخلت الغرفة التي تعودنا
بالجلوس فيها معًا من السرور والانشراح.

خروجًا يا نفس من هذه البقعة المؤلمة، خروجًا من هذا المكان المشبع بالشقاء، إلى
الشوارع، إلى القرى، إلى الفضاء، الفضاء الفسيح حيث كنا نقضي الساعات الطوال فوق

الحشائش الخضراء وتحت ظلال الأشجار الباسقة، هذه أيضًا مظلمة. غير أنني في نورك الروحاني يا فريد رأيت بين الزهور وردةً ناصعة البياض تلمع في وسط الحلك، فاقتربت منها واقتطفتها من عودها، ووضعتها فوق صدري وأدنيتها من مصدر حياتي لتمتص الحياة من قلبي ومن روحي.

ها هي يا فريد، لقد جئت بها إليك لأضعها فوق ضريحك، فإذا ما استطاعت النمو نمت وأزهرت، وإذا ما ذبلت فما أسعدها! لأنها فوق رأسك تذبل وبالقرب منك تموت. الحماية تطير في الفضاء، تغني وتفرح لتبلغ السماء خيرًا وتملأ الفضاء سرورًا، كذلك روحي إنها لتخلق كل ليلة في الفضاء إلى العالم غير المنظور، تاركةً وراءها هذا الغشاء المحترق الفاني هذا الجسم الترابي على قنّة الجبال فوق متن البحار على أجنحة الرياح إلى السحابة، هنالك تناجيك نفسي وفي النهاية تعود روحي من حيث أتت مهرولةً بسرعة إلى غشائها المحترق، فتجده هادئًا هدوء جسمك الآن منتظرًا عودتها إليه.

أي فريد، لقد سرنا في الحياة معًا أيامًا وشهورًا وسنين في حالة طبيعية لا يتخللها سوى الأخذ والرد الهادئين، ولكم تماسكت أيدينا! غير أننا ما كنا نشعر بروح هذا التماسك، ولكم تناقشنا في أبحاث كثيرة! غير أننا ما كنا لنرى في خلال ذلك الجدل وتلك المناقشة ما يستلقت النظر إلى وجود ذلك السر الكامن في كل لفظ من الألفاظ ورأي من الآراء وحجة من الحجج، لقد تعاملنا طويلاً غير أننا ما كنا لنرى في خلال هذا التعامل ونحن في أوقاتنا الساكنة الهادئة شيئاً مما هو وراء المادة.

كنا نلهو ونلعب متوجةً أعمالنا بسرور وانسراح، وإذا بالموت رابط في طريقنا يترصد مجيئنا ظل الموت الرهيب الذي تخافه كل الخلائق، لقد قطع بسيفه الصارم حبل الحياة الذي كان يربطنا، وحملك يا فريد بعيدًا عني حيث لا أستطيع أن أراك أو أن أتبع سبيلك، غير أنني لاحق بك يومًا ما لأن ظل الموت ينتظرني في الظلام كما كان ينتظر روحك الطاهرة.

أفريد، على قبرك سطع القمر، بالليل سطع نوره الفضي على ضريحك، وإذا بشعاعه المصافي يتألق فوق صورتك الجميلة، ويقبل فمك العذب، ويحل بين ذراعيك الطاهرتين. وبيننا أنا يا فريد في مضجعي مرتبك الفكر قلق الفؤاد مجروح الحشا، إذا بنور القمر هذا يطل من شبك غرفتي حتى تحقق من وجودي، وعرف أنني وحيد منفرد فطرح بين يدي رسالةً منك، رسالة صديق إلى صديقه، رسالة طاهرة من محبٍ سامٍ إلى شقيٍّ

بائس مكتوبةً بحروف من نور على ورق فضي، ففضضتها بلهف وكدت ألتهم كلماتها التهامًا، قرأتها مثنى وثلاث ورباع، قرأتها والدموع ملء محاجري والحزن قابض على قلبي، قرأتها وسأقروها إلى أن نتراسل، الأرواح مع الأرواح، وينطفئ نور هذا القمر المنظور وتصير الملائكة النورانية هي الرسل بيني وبينك، بل إلى أن لا تكون في حاجة إلى التراسل بشعاع القمر.

يا إخواني، أنا لا ألوم الموت لأنه حمل الفضيلة من الأرض واختطف الطهارة من بيننا، فللفضيلة والطهارة مناقب دائماً خضراء وقد ترك فريد كثيرًا من فضائله وطهارته. إنني لا ألوم الموت لأنه فرّق بيننا وبين من نحب فلن نعود بعد اليوم أن نتحدث مع شخصه المنظور. نعم، لا يمكن أن نراه، ولكن من يستطيع أن يمنع مناجاة الروح للروح وهما يعيشان في فضاء لا بعد فيه؟ فتعالى أيتها الروح المنبسطة في الفضاء، اقتربي مني واقرعي باب قلبي وادخلي إلى نفسي لعلك تشعرين بالحنين الذي يعجز اللفظ عن تعبيره لأنه حنين السماء إلى السماء.

أه! ما أظهر القلب وأنقى العواطف التي تتمتع ساعة واحدةً بمناجاة محب فارق الحياة، حين تنتقل النفس إلى عالم الخيال، إلى العالم الأعلى، إلى حيث الطهارة والصفاء! إخواني، إن فريدنا لم يموت، فهو حي في قلبي وقلب كل واحد من إخوانه. نعم، هو حي في نفوسهم بما كان له من التأثير الهادئ والخلق الحسن، وهل يموت من كان حيًّا في القلوب؟ كلا، لن يموت.

فهو إذن حي، وسيحيا فينا إلى أن ننتقل إليه، وهناك نحيا جميعًا تحت أجنحة إله واحد، هو إله الحب الذي يجمع الأحباب بعد شتاتهم.

نعم، إن فريدنا سيحيا، فإن الذكرى أشبه شيء بالورد تغيب حينًا، حتى إذا ذهب الشتاء ببرده القارس ومر الخريف بزمهريره وجاءت أوقات الربيع الصافية حينئذ تزهر الورد من جديد ويفوح عبقرها العاطر، فذكرى صديقنا الراحل ستبقى دائماً أبدًا زاهرةً زاهيةً دون أن يعترها أي ذبول.

أي صديقي البعيد غني كثيرًا على قرب ضريحك مني، إنني لن أراك بعد اليوم، فقط أراك يا فريد في خيالي، أراك في الحقول تداعب الورد في أكامه، أراك في جوف الليل بين النجوم والكواكب، أراك مع رؤية القمر وأسمع صوتك مع تغريد العصفور، أراك بين الأحباب تلاعبهم وتداعبهم بدعة الملائكة وطهارة سكان السماء.

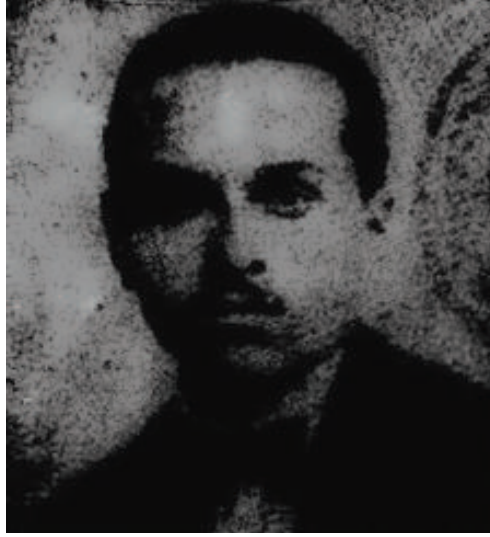
أيها الشهيد الكريم، عليك سلام الله وأنت في مضجع الهادئ.
والآن وقد وارينك لرمسك وأودعناك لحدك فأمام ضريحك نقف بخشوع وهيبة
برءوس منكسة وقلوب منكسة كليمة. نعم، نضع فوقك بعض الزهور ولكن سرعان
يا فريد ما تذبل هذه الزهور ويذهب عنها رونقها وجمالها كما ذبلت حياتك الغضة
وتواری شبابك الیانع.
أي صديقي الراحل، لو أن رأسي ماء وعيني ينبوع دموع إذن لبكيتك نهاري وليلي
وليس من يلومني فلم يجمد دمعي قط على حبيب، سوف يذهب الحزن والأسى ولكن
المحبة باقية ومعها وبها يستمر هذا الخيال الباقي لي.
الشباب يذهب قبل أوانه والهلل ينزوي قبل إبداره، وما ذلك إلا ليكمل في ظل الإله
العظيم.

ذلك الإله الواحد الذي يقيم في النور وإليه تتجه كل الخليفة.
فكن في انتظارنا يا فريد ونحن متجهون إليك، كن في انتظارنا أيها الشقيق المحبوب،
كن في انتظارنا أيها الراحل الكريم، كن في انتظارنا أيها الخُلُ الوفي.
والآن، الوداع الوداع يا من ملكت الأفئدة، وقد سُدَّتْ سويداء الضمائر، الوداع أيها
الشهم الصادق والصديق الحميم، الوداع الوداع إلى أن نلتقي.

(١١) ترجمة المرحوم رزق يعقوب

(١١-١) مولده

وُلِدَ الشاب الذكي شهيد الهمة المرحوم رزق يعقوب بمدينة دمياط في شهر أغسطس
سنة ١٨٩٦ ميلادية من أبوين كريمين، وكان والده موظفًا بها، وكان شديد العناية
بتربية أولاده وتهذيبهم. وما كاد الفقيده يبلغ الخامسة من عمره حتى أدخله مدرسة
الأقباط فتلقى بها مبادئ القراءة والكتابة، ثم نُقِلَ والده إلى بور سعيد وهناك ابتداءً دور
دراسة الفقيده.



المرحوم رزق أفندي يعقوب من دمياط.

(٢-١١) دراسته

دخل الفقيد مدرسة الأقباط ببور سعيد ومكث بها عامين، ثم عاد والده فنُقل إلى دمياط، وراقه أن يُلحق الفقيد بمدرستها الأميرية ثم مدرسة أسوان فمدرسة عابدين الأميرية بالقاهرة حيث نال منها الشهادة الابتدائية. ولم تمنعه كثرة التنقل من مدرسة لأخرى من النشاط والتقدم فكان أول فرقته طول مدة دراسته.

انتهت دراسته الابتدائية فأدخله والده مدرسة رأس التين الثانوية، لأن مدارس القاهرة كانت قد غصّت بالطلاب، فجد واجتهد مثابراً على الدرس ليل نهار لا يعرف للعب طريقاً، فأمضى الأربع سنوات بلا تَوَانٍ ولا تأخير حتى البكالوريا، ولكن المرض حال دون مرامه في السنة الأخيرة فعاقه عن الامتحان، فانتقل إلى المدرسة الخديوية وأمضى بها السنة الأخيرة وحاز منها شهادة البكالوريا في القسم العلمي عام ١٩١٧.

وبعد نجاحه وجه نظره لدراسة الطب إلا أن ترتيبه لم يساعده فالتحق بمدرسة الطب البيطري فأمضى بها السنة الأولى والثانية، وبعدها قامت نهضتنا الأخيرة فكان

جندياً بأسلاً وفي مقدمة الصفوف، بل وطنياً غيوراً دفعه حب بلاده لأن يضحي بعلومه مقدماً الواجب المقدس على العلم، فجاهد جهاد الأبطال في ميادين القتال، قدم نفسه للخدمة فكان خير من أوْتُمِنَ عليها، ولم يفتر عن هذا الواجب دقيقةً واحدةً، وتحول كل همه أن يرى مصر نالت استقلالها.

ولما فُتحت أبواب السفر إلى أوروبا طلب من والده السفر مع إخوانه، مقنعاً إياه بالفائدة العظمى التي يجنيها ليجمع بين طب الحيوان والإنسان حائماً إخوانه على الاقتداء به، وصوبَ أمله إلى تلقن الطب البشري ليعخدم بلاده خدمةً حقيقيةً بل الإنسانية جمعاء. إلا أن القدر كان يجري وراءه ويخبئ له ما لم يكن في الحسبان، فلاقى منيته وهو على أبواب الجهاد فاستشهد بأودين وفاضت روحه الزكية إلى بارئ النسمات، وغمض الموت أجفانه وأسكت صوته وأوقف قلبه الخفاق إلى العلا والأمل الواسع والحياة المنشودة قبل أن يخطو فيها خطوات واسعة، وقضى كما تقضي الوردة داخل الكمام قبل أن ترى ضوء النهار وحرارة الشمس بل ذوى هلالاً في أيامه الأولى.

كان — رحمه الله — طيب القلب، شاباً مملوءاً صحةً ونشاطاً، وغيوراً، محباً لإخوانه، كريم الأخلاق، متفانياً في حب بلاده، عالي الشعور رقيق الإحساس يتألم لمصائب الغير. وكفى أن نذكر له تلك الحادثة التي رفعت في نظر إخوانه إلى السَّمَاءِ الأعلى، ففي يوم حضور قرياقص أفندي ميخائيل قُبِضَ على أخيه متري أفندي وشاب آخر في القاهرة يدعى أحمد أفندي صبري، فحكمت المحكمة العسكرية بحبسه شهراً أو بغرامة عشرة جنيهات، فأبّت عليه نفسه أن يرى أخاه حراً طليقاً وذاك سجيناً متألماً لخلو يده من المال، فقام بين إخوانه حائماً إياهم على التبرع وقد تَوَجَّحَ الاكتتاب بكل ما يملك ومر على دور الحكومة جامعاً من أولي الإحسان ما تجود به أنفسهم، وفي أيام قلائل جمع المال اللازم وأخرج الشاب من السجن، وكان لم يكن له به أدنى معرفة سوى أنه وطني مثله.

فيحزننا أيها الصديق المحبوب والراحل الكريم أن نذكر اليوم باكين متأسفين، وإننا بفقدك فقدنا قمراً كنا نود أن نستعين به على عبور هذه الأيام المظلمة ودرعاً ندافع بها إذا حلت المصائب. وليكن في موتك أيها الصديق مثلاً حياً على الجهاد والعمل وقوة العزيمة والدأب وراء إعلاء شأن هذه الأمة الأسيفة، التي كتب عليها سوء الطالع أن ترى في كل يوم من معاكسة الدهر حادثاً جديداً.

فإذا حق لنا البكاء فإننا نبكي منك النجاة والفتوة، نبكي فيك ذلك الإقدام الذي صوّبك نحو طلب العلم وبلوغ الكمال، وندب فيك كد نفسك وطموحها إلى المجد الأدبي غير مبالٍ بما قد يعرض لك، ونبكي فيك الأخلاق والشعور الحي والفضيلة وكرم الأخلاق. مات رزق وكان يود أن يعيش ليرى ثمرة أتعابه، كان يود أن يعيش ليعلم أتمته وبلاده، كان يود أن يعيش حتى يرى أعلام الحرية ترفرف على هذه الدار، كان يود أن يعيش ليكون إنساناً عاملاً في الحياة، ولكن شاء القدر أن يموت رزق فلا مرد لقضائه. سلام عليكم أيها الشهداء الأبطال.

سلام عليكم من أمة تكلمتكم قبل أن تجني من ثماركم، وفقدتكم في ساعة محنتها ... أسكنكم الله فسيح جناته وأسبغ عليكم واسع رحمته، وبعث في قلوب أهلكم وإخوانكم الصبر والعزاء، وألهم الأمة جميعها الثبات والسلوى على هذا المصاب، إنه سميع مجيب.

(١٢) ترجمة المرحوم عبد الحليم حلمي

(١-١٢) مولده

وُلد فقيد النشاط والجهاد العلمي الشهيد المرحوم عبد الحليم أفندي حلمي بقرية قطاوية من أعمال أبو حماد شرقية سنة ١٨٩٨ ميلادية. وهو نجل حضرة الوجه الحاج محمود حلمي من أعيان قطاوية ومن وجوه مديرية الشرقية ومن الرجال الذين يحبزون كثرة الإنفاق على أبنائهم وتربيتهم تربيةً عصريةً صحيحةً ويفضلون أن يورثوا أبنائهم علماً وأدباً، وله نجل غير الفقيد بألمانيا هو الدكتور علي علوي أفندي من أذكى الشبان المصريين ومن نجباء أبناء مصر في أوروبا الذين يتسابقون في طلب العلم ليكونوا أمثلةً عاليةً لأبناء وطنهم وليرفعوا قدر الوطن وقدر الأمة المصرية بين الأوطان والأمم.

(٢-١٢) دراسة الفقيد

التحق الفقيد بمدرسة محمد علي الابتدائية بالقاهرة بعد إلمامه بمبادئ الكتابة والقراءة في قريته وأتم بها دروسه الأولية، وعندما حصل على شهادة الدراسة الابتدائية سافر إلى الإسكندرية وانتظم في سلك طلبة المدرسة العباسية ولبث بها عامين، ثم رأى أن يدخل مدرسة طنطا الثانوية ويتم دراسته بها فسمح له والده بذلك لأنه كان يثق بذكائه ونشاطه تمام الثقة، فترك له حق تخير المدرسة التي يراها ملائمةً له.

وقد أفرغ الفقيد جهده وحصل على الشهادة الثانوية ثم راقه أن يلتحق بمدرسة الطب لأنه كان في المئة الأولى من حائزي شهادة البكالوريا، وقد مكث بهذه المدرسة عامًا كاملاً متمشيًا مع ميوله ومحبه للبحث والدرس.



المرحوم عبد الحليم أفندي حلمي من قطاوية من أعمال أبو حماد شرقية.

ولما رأى قوافل الطلبة تشدُّ الرحال إلى مهد العلوم الحديثة والاكتشافات الطبية بألمانيا، سأل والده أن يأذن له بالسفر ليكون مع شقيقه هناك فوافقه الوالد على رغبته وسافر مع إخوانه الطلبة المرتحلين، وهناك على الحدود الإيطالية النمساوية لقي حتفه في حادثة القطار وكان عمره اثنتين وعشرين سنة فحُمل إلى مصر وطنه العزيز، وبعد تشييع جنازته في الإسكندرية نُقل إلى قريته حيث دُفن بها باحتفال لم يسبق له مثيل، وقد توافد العمدة وكبار الموظفين والأعيان لتعزية والده، وزاره مندوب من الوفد المصري ومندوب من الحزب الوطني لتعزيته في ذلك المصاب الفادح. فرحم الله الفقيد رحمةً واسعةً وألهم عائلته الصبر والسلوان.

وقد رثاه ضمن إخوانه الشهداء صديقهم الحميم حضرة الكاتب الأديب هارون أفندي مصطفى، طالب طب بجامعة برمنجهام بإنجلترا، بهذه الكلمة المؤثرة:

إلى أصدقائي الراحلين

عبد الحليم أفندي حلمي، وعلي أفندي حسن بكري، وشفيق أفندي سعيد ... أي إخواني: عاجلتكم المنون وأنتم في ريعان الشباب فذوى غصنكم وذهبت نضارة حياتكم فكنتم كاللهال.

عجل الخسوف عليه قبل أوانه فمحاه قبل مظنة الإبدار

لقد مضينا شطرًا عظيمًا من حياتنا المدرسية سويًا فكنتم مثال الجد والعمل، ولقد ألف الله بين قلوبنا فأصبحتم مثال الإخلاص والوفاء لصديقكم الذي خلّفتموه للحزن والأسى.

تركتمكم في مصر على أن تلحقوني لتتميم دراستكم ولكن أراد الله غير ذلك، فداهمتكم المنون وكان أمر الله مقضيًا.

لطالما تمنيت أن أراكم في غربتكم مجاهدين للحصول على أمانيكم بعزيمة ماضية وبجدكم المعهود، ولطالما تمنيت أن أراكم وأنتم مثال ذكاء الشرق في هذه البلاد النائية. ولطالما تمنيت أن أراكم بدورًا ساطعة في سماء وادي النيل لترفعوا من شأن بلادنا العزيزة، ولكن:

الموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

فكان لخبر استشهادكم وقع عظيم على فؤادي الحزين. وإنني لأسلو بنفسي في ديار غربتي بين كل آونة فيعيد التاريخ على الذاكرة أنباء الماضي فأحني رأسي إجلالاً لتلك الأرواح الطاهرة التي تحوم حولي لتسمع أناث قلبي الحزين. فسلام عليكم يا رفاق الصبا ممن يتمنى أن لو كان لكم الفدى. سلام عليكم من مخلص يسأل الله أن يجمعه بكم في جنات النعيم.

بعد وقوع الفاجعة

أسهبنا في كيفية وقوع الفاجعة الأليمة في مقدمة الكتاب. ونأتي هنا على ما حدث بعد وقوعها، فقد تابع من سَلِم من الطلبة طريقه إلى عاصمة الألمان إلا القليل منهم تخلفوا للعناية بأمر المنكوبين، ولما وصل الخبر إلى مسامع الطلبة المصريين في ألمانيا والنمسا وإيطاليا انتدبوا جماعةً منهم للقيام بما يدعوهم إليه الواجب الوطني المقدس نحو مواطنيهم، وحُمِلَت الجثث إلى أودين وحُمِلَ إلى مستشفىها الجرحى وعددهم تسعة، وهم حضرات الأفندية محمود محمد التونسي وتقرر له علاجٌ أربعين يومًا، وأحمد نبيه عشرين يومًا، وحسن إبراهيم خمسة وعشرين يومًا، وعبد الرازق عنايات ثلاثين يومًا، ونصر حسن ستين يومًا، وحامد عبد الرحمن يوسف عشرة أيام، ومحمد توفيق عثمان عشرين يومًا، وعبد الحميد حامد ثابت عشرين يومًا، وعاصم محمد صقر عشرين يومًا. وكان حضرة صاحب العزة عبد الحميد بك سعيد قد خف إلى مكان الحادث وبذل جهده في خدمة أبناء وطنه وأبدى همّةً تذكر له بالشكر والثناء الجميل.

وقد أثر هذا الحادث في أمة الفنون الجميلة، الأمة الطليانية أمة العواطف وصديقة مصر، تأثيرًا لا أبالغ إذا قلت إنه لا يقل عن تأثيره في المصريين أنفسهم، وقد أفاضت صحفهم في وصفه وفي تعزية الأمة المصرية في أبنائها الأعمى.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت السيدات والأوانس الإيطاليات يبكين الشهداء كأنهم إخوانهن وأبنائهن، وكانت تدفعهن عواطفهن الشريفة ومشاعرهن الجميلة فيجملن الأزاهر الغضة وأنواع الحلوى والتحف النفيسة ويفدن على المستشفى فيواسين الجرحى ويقمن مقام الأمهات في تخفيف آلامهم، فله ما أرق هذا الشعور وما أسمى هذه العواطف!

ذكرى شهداء العلم والغربة

ولقد أُجريت عملية التحنيط للجثث وأُبقيت في مكان خاص بها لِتُحمل إلى وطنها
مصر فترقد في مضاجعها التي تطمئن فيها جُيوبها وترتاح إليها أجسادها.

عناية الوفد المصري بالشهداء

رأى حضرات الأماثل أعضاء الوفد في باريس أن المصاب مصاب الأمة بأسرها، فقررت أن تنقل الشهداء على نفقتها إلى مصر، وأوفدت صاحب العزة عبد اللطيف بك المكباتي خصيصاً إلى إيطاليا، وبادر صاحب المعالي رئيس الوفد سعد باشا زغلول فأرسل تلغرافات التعزية إلى الأمة فكان لها وقع جميل وكان لعمل الوفد استحسان عام، وأرسل صاحب المعالي سعد باشا هذا التلغراف لسعادة محمود سليمان باشا رئيس اللجنة المركزية للوفد المصري يعزي به الأمة:

إن الحادثة الفاجعة التي وقعت في محطة مونتبا من أعمال إيطاليا تلك الحادثة التي تُوِّفِّي فيها اثنا عشر من أبنائنا الأعزاء قد آلمت أفئدتنا وأحزنت نفوسنا، فنرجو أن تقدموا تعازينا لأسراتهم ولجميع مواطنينا، وتعربوا عن آلامنا ومشاركتنا للجميع في الحزن على هذا المصاب، فإن فقدان هؤلاء الشبان الذين كانوا مسافرين لإتمام دراستهم ليكونوا أنفع لوطنهم وأمتهم يعد خسارة كبرى للبلاد

سعد زغلول

وأرسل سعادة الشيخ الوقور محمود باشا سليمان رئيس لجنة الوفد المركزية إلى أسر شهدائنا الخطاب الآتي نصه:

مصاب مصر باستشهاد اثني عشر نجيباً من صفوة شبابها عظيم، ولكن أعظم منه ثواب الصبر وما أحرزوا للوطن بموتتهم تلك من الفخر. لقد اغترب

ذكرى شهداء العلم والغربة

هؤلاء الشهداء في تحصيل العلم على أن يرجعوا بعد ذلك إلى مصر مفخرة لها شاملة وقرّة لها عاملة، فإذا كان القدر قد أعجلهم عن الحياة التي تمنّتها لهم بلادهم فقد ماتوا موتةً سجلت لهم ذكرًا عاليًا ولها فخرًا باقياً.



حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري.

وإن القائمين بالدفاع في القضية الكبرى لأوفى إخوانهم نصيباً من الحزن على أولئك الأعزاء الذين كانوا يرون فيهم مدداً لهم ونخراً لوطنهم. فتقبلوا تعزيتنا عن نجلكم المرحوم وعن إخوانه الشهداء جميعاً، والله المسئول أن يعوض البلاد منهم خيراً ويفرغ على القلوب المحزونة صبراً، وأن يتغمدهم برحمته ورضوانه.

الإمضاء

محمود سليمان

وقد ذكرنا برقيات أسر الشهداء التي بعثوا بها إلى سعادته في تراجم مستشهديهم. ولم يكتفِ معالي الرئيس بذلك فقد أرسل تلغرافاً يوم أول أبريل إلى اللجنة المركزية بالقاهرة يقول فيه:

ولقد خابرنا سفير إيطاليا في باريس في مسألة حادثة التصادم فوعدنا أن يُعنى بالمصابين عنايةً خاصةً. وقد أرسل لنا مكباتي بك أسماء الموتى، وعدد الجرحى ٩ وحالتهم حسنة. ونحن مشغولون بأمر نقل الجثث إلى مصر على نفقات الوفد وسنحيطكم علماً بما يتم.

وقد اجتمع المكباتي بك وعبد الحميد سعيد بك ومن معهم من المصريين وحصلوا على التصريح لهم بنقل الجثث، وقدم لهم محافظ أودين ورجال الحكومة الإيطالية غاية ما يمكن من المساعدات والتسهيلات التي يسرت عليهم مهمتهم العظيمة.

(١) الاحتفال بنقل الشهداء

كان يوم ١٥ أبريل مشهوداً في أودين، فقد اجتمع كل سكانها وطلبتها لتشييع جنازة الشهداء، وحملوا أكاليل الزهر فجّللوا بها التوابيت، وعقدوا موكباً رهيباً كان يتقدمه القومنداتوري جيوزب ماري محافظ أودين والدكتور ألسندرو باجاردي الضابط الطبي التابع للحكومة وغيرهما من الصحفيين الإيطاليين ومن أعيان أودين. وسار الأهالي والموظفون والطلبة يحملون أعلامهم، وكان بينهم كثير من فضليات السيدات، وكانت النعوش محمولةً على أكتاف الطلبة المصريين والأعيان من أهل الشهداء الذين سافروا إلى إيطاليا. ومشى الموكب على هذا النظام حتى وصل محطة السكة الحديدية، وهناك فاضت العواطف فتبادلها الطلبة المصريون والإيطاليون. ووقف أحد كبار المصريين فألقى خطاباً نفيساً مؤثراً شكر فيه الأمة الإيطالية وحكومتها على ما أظهرتا من العطف نحو المصريين، فقبل خطابه بهتاف عظيم لإيطاليا ومصر. وسار القطار يحمل الشهداء إلى برننزي فوصلها يوم ١٦ أبريل، ووُضعت الجثث هناك حتى جاءت الباخرة حلوان فحملتها يوم الجمعة ٢٣ منه إلى مصر وهى منكسة العلم حداداً عليهم.

(٢) الأمة أثناء ذلك

لقد كان حزن الأمة على أشد ما يكون، وقد لبس الطلبة شارات الحداد وأوقفت المدارس الدراسة بضع دقائق حدادًا عليهم، وأقامت حفلات التآبين في جميع أنحاء القطر ورفعت الأعلام منكسَّةً، وأرسل الطلبة المصريون تلغرافات التعزية للأمة، ومن ذلك ما جاء من الطلبة المصريين بمنشستر:

نشعر من أعماق قلوبنا بخسارة فقد إخواننا الطلبة في حادثه السكة الحديدية بإيطاليا، ونشاطر الأمة حزنها، ونقدم عزاءنا القلبي إلى أهل المتوفين.

وأرسل النادي المصري بلندن ما يأتي:

لندن في ٢٩ أبريل

يعرب النادي المصري بلندن عن حزنه الشديد على الإخوان الاثني عشر الذين قُتلوا في سبيل العلم والوطن، يقدم عزاءً خالصًا إلى أسراتهم.

النادي المصري بلندن

وأرسلت الجمعية المصرية بباريس مثل ذلك. وبالجمله فقد كان حزن المصريين في بلادهم وفي الخارج بالغًا حده.

(٣) لجنة الاحتفال بالإسكندرية

تألّفت لجنة بالإسكندرية من حضرات أصحاب السعادة والعزة أحمد يحيى باشا رئيسًا، ومحمود باشا الديب وكيلًا، وعبد الله باشا الغرياني، ومحمد بك فهمي الناضوري، وعبد العزيز بك الحديني، ومحمد بك الكلزة، والسيد بك مرسى، ومصطفى بك الخادم، ورمضان بك يوسف، وإبراهيم بك سيد أحمد، والدكتور أحمد عبد السلام، وسليمان أفندي أنطون، وعبد الحليم أفندي جميعي، وأحمد بك زكي، والدكتور ظيفل بك حسن، وفهمي بك غانم، وسعيد بك طليمات، وصديق أفندي أبو هيف أعضاء، برعاية صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا، وقررت إعداد الاحتفال بتشييع جنازة الشهداء على الترتيب الذي يجيء في وصف الجنازة.

وصول الباخرة إلى الإسكندرية

وصلت الباخرة حلوان التي تقل جثث الشهداء إلى ميناء الإسكندرية عند الساعة السادسة من صبيحة يوم الثلاثاء ٢٧ أبريل، ورست الساعة السابعة والدقيقة ٥٠، فأُنزلت منها الجثث ووُضعت في مسجد الشياطين بالجمرك، وكان موجودًا في ذلك الوقت أعضاء لجنة الوفد المركزية يتقدمهم أصحاب السعادة والعزة إبراهيم باشا سعيد وعبد الخالق باشا مذكور وفتح الله باشا بركات وواصف بك غالي وعبد الستار بك الباسل وعلي بك حفني محمود ونجيب بك الغرابي وأمين بك إسماعيل ومحمود بك عبد النبي وحسنين بك عبد الغفار وعلوي بك الجزار، وأعضاء لجنة الاحتفال بالإسكندرية، يتقدمهم أحمد يحيى باشا ومحمود الديب باشا وعبد الله الغرياني باشا ومصطفى الخادم بك، ثم كُتب على كل تابوت اسم صاحبه وُلِفَ بالعلم المصري.

وقد كانت لجنة الوفد قد انتدبت اثني عشر عضوًا برئاسة صاحب السعادة الشيخ الوقور إبراهيم باشا سعيد للاشتراك في تشييع الجنازة، وانتُدِبَ الأب بولص غبريال عن رجال الدين، وانتدبت اللجنة الإدارية للحزب الوطني صاحب العزة عبد اللطيف بك الصوفاني، وانتُدِبَ حضرة الكاتب الفاضل السيد أفندي علي صاحب جريدة النظام لتمثيل الصحافة، وانتدب معالي وزير المعارف حضرات أصحاب العزة علي بك حافظ ناظر المدرسة العباسية، ومحمد بك السيد ناظر مدرسة رأس التين، وهدايت بك ناظر مدرسة محرم بك، وعلي بك الكيلاني مفتش التعليم الأولي؛ ليمثلوا الوزارة، وأُرسلت كل مديرية وكل مدرسة من يمثلها في الاحتفال، وكذلك فعلت النقابات، واحتجبت صحف الإسكندرية يومئذ على اختلافها، وأُغْلِقَت البنوك والمحلات التجارية الكبرى وجميع حوانيت المدينة، ورُفِعَت الأعلام منكسَّةً موسومةً بشارة الحداد لا فرق في ذلك بين وطني وأجنبي، فقد أظهر إخواننا الأجانب منتهى ما يكون من المودة والحب للمصريين باشتراكهم في الموكب وفي الحزن العام الذي كان يبدأ في كل ناحية من نواحي مدينة الإسكندرية.

وقررت مصلحة المواني انتداب ١٠٠ من حراسها للاشتراك في الاحتفال، وأُرسلت مصلحة خفر السواحل ١٠٠ من رجالها ليتناوبوا جميعًا حمل النعوش، وقد سعى ألوف من الأهالي للحصول على مقاعد، وهذه أول مرة أجر الإسكندريون شرفات منازلهم للمشاهدين.

نائب عظمة السلطان في الإسكندرية

وقد أناب حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الأول عنه حضرة صاحب السعادة الجليل حسن عبد الرازق باشا محافظ الإسكندرية ليسيّر في تشييع الجنازة، فاهتم كثيرًا في تنسيق النظام بما يذكر لسعادته بمداد الشكر والثناء، وقد نفذَ رغائب صاحب العظمة السلطان أدام الله ملكه.

تلغراف نائب الملك

وفي صباح هذا اليوم ورد تلغراف من فخامة اللورد اللنبي على صاحب السمو الأمير عمر طوسون، يقول فيه:

حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون

بمناسبة تشييع جناز الشبان المصريين الذين قضوا نحبهم في مصاب «بنتبا» أقدم خالص شعوري، وقد انتدبت الضابط القائد بالإسكندرية لينوب عني في حفلة الجنازة.

الموكب الرهيب بالإسكندرية

ما وافت الساعة الثالثة ونصف حتى تحرك الموكب الرهيب، وكان البوليس يحافظ على النظام في الطرق التي يمر بها الموكب، وكان الزحام شديدًا جدًا. وسار الموكب على النظام الآتي بين نغمات الموسيقى المحزنة وبين الأعلام المرفوعة والشارات المحمولة الموسومة بشارات الحداد مبتدئًا بموسيقى البوليس - فموسيقى الأمير عمر طوسون - فموسيقى الكشفة - ففرق الكشفة - فنعشا الشهيدين رزق يعقوب وفريد فتحي رزق الله يتقدمهما الشمامسة ورجال الإكليروس الموقرون - فنعوش بقية الشهداء - فطلبة المدارس والمعاهد الدينية على اختلافها - والعلماء الأعلام - فالرؤساء الروحيون - فحضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا، وحضرة صاحب السعادة حسن باشا عبد الرازق محافظ الإسكندرية نائبًا عن عظمة السلطان، وجناب قائد القوات البريطانية في الإسكندرية نائبًا عن فخامة نائب الملك - فرئيس وأعضاء لجنة الاحتفال - وأعضاء لجنة الوفد المركزية بالقاهرة - وأعضاء

بلدية الإسكندرية ورؤساء المصالح - فرجال القضاء - فرجال المحاماة - فالأطباء - فالمهندسون - فالصحفيون - فالجاليات الأجنبية - فالمحافل الماسونية - فوفود البلاد - فأعيان الإسكندرية - فالتجار - فنظار المدارس ومعلموها - فموظفو المصالح - فرؤساء وأعضاء مجالس إدارات الجمعيات الخيرية - فالنقابات على اختلافها، وبقيّة المشيعين. وظل الموكب سائرًا على هذا الترتيب مخترقًا باب الكراسية - فشارع السكة الجديدة - فشارع سوق الكانتو - فشارع فرنسا - فميدان محمد علي - فشارع شريف باشا - فشارع محطة مصر، ثم محطة مصر، وهناك وُضعت التوابيت في القطار، وألقى سعادة المحافظ الجملة الآتية بصفته نائبًا عن عظمة السلطان موجّهًا بها إلى صاحب السمو الأمير عمر طوسون:

يا سمو الأمير، إني بالنيابة عن عظمة السلطان الذي أنابني عنه للاشتراك في تشييع الجنازات أبلغكم عظيم أحزاني، وأقدم التعزية بالنسبة لهذه الكارثة الكبرى. ونرجو الله أن يعوض الأمة خيرًا، إنه سميع مجيب.

فأجاب سمو الأمير:

يا سعادة المحافظ، أرجو أن تبلغ تشكراتي لعظمة السلطان. وإني أرجو الله أن يجعل هذا المصاب آخر أحزان الأمة المصرية، وأن يجعل أيامها المقبلة أيام سرور، وأن يبلغها ما تتمناه في القريب العاجل إن شاء الله.

وبعد ذلك قصد أعضاء اللجنة المركزية للوفد المنتدبين لتشيع الجنازة بالإسكندرية إلى سراي صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا، وصاحب السعادة أحمد يحيى باشا يشكر لجنة الإسكندرية على عنايتها بأمر الاحتفال. وأرسل سعادة محافظ الإسكندرية للمجلس البلدي ومصالح الحكومة الرئيسية شكره على اشتراكها في جنازة شهداء العلم وسير رؤسائها في ذلك الموكب العظيم وطلب إلى الصحف نشر ما يلي:

محافظ الإسكندرية يشكر الجاليات الأجنبية في الثغر على ما أبدته من جميل العطف على الأمة المصرية في المصاب الذي نزل بها في اثني عشر طالبًا من زهرة شببيتها، كما يشكر لفرق الكشفة وطلبة المدارس وطلبة المعاهد والطوائف المختلفة ما أخذته على نفسها من حفظ النظام والترتيب في موكب الجنازة.

ومما يستحق الذكر الإعجاب من مميزات هذا الاحتفال، فإنه مع شدة الازدحام ومع اشتراك نحو المئتين وخمسين ألفاً فيه فإنه لم يحدث حادث مكرّر وانصرفت الجماهير في سكون، مع أن مثل هذا الازدحام لا يخلو من الحوادث. وأرسل الحزب الوطني الوفود إلى بلدان الشهداء لتعزية عائلاتهم، فأوفد إلى دمياط بعض الأفاضل برئاسة الأستاذ محمد أفندي حسين العرارجي المحامي، وإلى طنطا وفدًا برئاسة فضيلة الشيخ علي عبد العليم أحد علماء المعهد السكندري، وإلى دمنهور حضرتي السيد علي المغازي العضو بمجلس مديرية البحيرة، وأحمد أفندي الصوفاني، وإلى نوسا الغيط بمركز أجا وفدًا برئاسة حضرة الأستاذ الشيخ عبد السلام العسكري أحد علماء معهد الإسكندرية.

قطار الشهداء

وقف قطار الشهداء بدمنهور حيث أنزلت جثة الشهيد محمد إبراهيم زويل، وأنزلت جثة المرحومين إبراهيم أفندي العبد ورمضان أفندي هدايت في طنطا، وأنزلت جثتا عبد الوهاب أفندي أحمد سبع ومحمود أفندي عبد الرحمن سليم بها ليحملها إلى المنصورة، وأنزلت جثة المرحوم شفيق أفندي سعيد ببناها، وتابع القطار سيره إلى القاهرة حيث وصلها بعد منتصف ليلة الأربعاء ٢٨ أبريل، وأنزلت الجثث منه استعدادًا لاحتفال القاهرة العظيم.

(٤) اليوم المشهود

احتفال العاصمة بجنزة الشهداء

لم تشهد العاصمة المصرية يومًا أشد روعةً وجلالًا من يوم الأربعاء ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٠، فما كاد ينتصف النهار حتى أغلقت المتاجر والحوانيت والبنوك ورفعت الأعلام منكسةً على الدور، وهُرع سكان العاصمة إلى باب الحديد لتشجيع جنزة الأربعة الشهداء، وخرجت فرق الكشافة وتلاميذ المدارس وطلابها وأعضاء النقابات والجمعيات ميممةً مكان الاحتفال، وكانت لجنة الوفد المركزية قد أعدت رسمًا كروكيًا متقنًا بينت فيه موضع انتظار كل جماعة في فناء المحطة لجلوس العظماء وكبار المشيعين، وقد صُفّ مائتا مقعد ولم تكن كافيةً. وكان في داخل المحطة من الأمراء: صاحب السمو الأمير يوسف كمال والأمير إسماعيل داود، وصاحب الدولة الوزير حسين رشدي باشا، وأصحاب المعالي

الوزراء عبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقي باشا وإبراهيم فتحي باشا وجعفر ولي باشا وأحمد حشمت باشا ويوسف سابا باشا، وأصحاب السعادة محمد شكري باشا وإسماعيل حسنين باشا، وعدد كبير من الضباط العظام، وسعادة الشيخ الوقور محمود سليمان باشا، والشيخ الجليل إبراهيم باشا سعيد، وأمين سامي باشا، ومرقص بك حنا، وواصف بك بطرس غالي، وعبد الخالق مذكور باشا، واللواء عبد الرحيم فهمي باشا، والأستاذ محبوب بك ثابت، وعبد الستار بك الباسل، ومصطفى بك النحاس، ومحمد بك محمود، وعلي بك لهيطة، وفخري بك عبد النور، وعبد الرحمن بك فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية والقائم بتنظيم الموكب، وعلي بك فهمي كامل وكيل الحزب الوطني، والدكتور إسماعيل بك صدقي، ومحمد بك زكي علي المحامي.

وكان من العلماء: حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية وهيئة كبار العلماء، وصاحب السعادة السيد عبد الحميد البكري ومعه مشايخ الطرق، ووكيل البطيريركية ومعه كبار القسس، وثلاثة من رجال الدين الإسرائيليين، وثلاثة من الإكليروس الأرمن، ومعهم وفد يحمل إكليلاً من الزهر، ورؤساء مدارس الفير، ونائب معتمد فرنسا، ونائب معتمد إيطاليا، ومعتمد الحكومة الهاشمية. وكان صاحب المعالي محافظ العاصمة محمود فخري باشا، وزير المالية اليوم، وجناب رسل بك حاكمدار البوليس يبذلان الجهد في سبيل راحة جمهور المشيعين.

وكان صاحب السعادة حسن باشا عبد الرازق محافظ الإسكندرية قد حضر لتشيع الجنازة في القاهرة، وكان يحيط به وفد مؤلف من حضرات أصحاب العزة عبد السلام بك رجب ومحمد بك سراج وفهمي بك الناضوري وسالم بك الفروني وبشير بك توتونجي ومصطفى بك جميل برتو ومحمد بك بدير ورمضان بك يونس وعمر أفندي المراكشي، وغيرهم من أعيان الإسكندرية وكبار تجارها.

نائب عظمة السلطان في العاصمة

وقد أناب حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد الأول عنه حضرة صاحب السعادة الفضال الفريق شحاتة كامل باشا كبير الياوران في القصر السلطاني للسير في تشيع الجنازة، فاهتم اهتماماً عظيماً في تنسيق النظام بما يُذكر لسعادته بالشكر والثناء، وقد نفذ رغبة صاحب العظمة السلطان في تأدية ما يلزم نحو أولئك الشهداء، كلاً الله عرش عظمته بعين العناية الصمدانية.

مندوب فخامة اللورد اللبني

وقد أناب فخامة اللورد اللبني الكابتن موريس ليكون مندوباً من قبله في احتفال تشييع الجنازة بالقاهرة.

وأوفد جناب الجنرال كونجريف قائد القوات البريطانية بالعاصمة ضابطين من كبار الضباط ليمثلاه، وكان بين الحاضرين من الموظفين البريطانيين جناب الجنرال كلايتون باشا مستشار وزارة الداخلية، والمستر باترسون مستشار وزارة المعارف العمومية، والجنرال هربرت باشا قومندان قسم المحروسة، والمستر أنتوني مدير عموم مصلحة الأملاك الأميرية، وجناب المستر جريج المدير العام للخارجية المصرية، والمستر براون المراقب العام بوزارة المعارف.

وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر حتى خرجت العاصمة رجالاً ونساءً وشباناً تستقبل جثث أربعة من أبنائها، وتحيي في هذه الأربع أرواح شهدائها. أجل لقد كانت العاصمة ماثلة في ذلك الموكب الرهيب المبكي الذي يقصر عنه الوصف ولا يبلغ مداه الطرف، وكان هذا الموكب من روعته وفخامته وجلالته فوق ما يتمثله الخيال. وقد تعذر السير ووقفت حركة المدينة من كل ناحية إلا في طريق مرور الموكب، ولم أرَ العاصمة أشد بكاءً وحزنًا من ذلك اليوم.

وكان طريق المشهد من باب الحديد إلى القلعة مزدحمًا بحيث لا تجد موضعًا للوقوف، وكانت شرفات المنازل ملأى بالعقائل اللواتي لم يستطعن مشاركة رجالهن وإخوانهن فوقفن في الشرفات مرتديات ملابس الحداد، وقد سالت دموعهن وتضاعدت زفراتهن، وكان إخواننا النزلاء قد نكسوا أعلامهم على طول الطريق مشاركةً لنا في مصيبتنا العامة.

وفي الساعة الرابعة تحرك الموكب من محطة العاصمة تتقدمه موسيقى الأحداث عازفةً ألحاناً محزنةً، وكان أفرادها يلبسون ثياباً سماوية اللون، ففرق الكشافات السلطانية تتقدمها موسيقاها وعلمها منكس، فكشافة مدرسة السعادة، وفرقة الكشافات الإلهامية، فكشافة المدرسة الخيرية الإيرانية، فكشافة وادي النيل، فالكشافة الأهلية، فكشافة مدارس التوفيق، وفرقة كشافة المستقبل، فكشافة الجمالية، فكشافة الأرمن، فمتطوعو جمعية الإسعاف، وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص.

ويلي هؤلاء طلبة مدرسة البوليس، فطلبة المدرسة الحربية، ففريق من الجالية الإيطالية وهيئتها الرسمية والعلم الإيطالي، وقد قابل الجمهور المصري صنيعهم بالشكر

والامتنان، وتلاههم طلبة المدرسة الخديوية، فالتوفيقية، فالسعدية، فالعباسية، فالإعدادية الثانوية والابتدائية، فمدرسة وادي النيل، فالرشاد، فالهياتم، فالأقباط الكبرى، فمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، فالمدرسة الخيرية الإيرانية، فكلية مصطفى كامل، فمدرسة ثمرة التوفيق، فالكلية الأهلية، فالاتحاد الوطني، فالمدرسة السلطانية، فالمدرسة الأهلية المصرية، فمدرسة باب الحديد الثانوية، فمدرسة الفنون الجميلة، فورشة مصر الصناعية الأميرية، فورشة الصنائع الإلهامية، فالطلبة المصريون في المدرسة الفرنسية الليلية، فطلبة مدرسة الأمريكان الثانوية، فمدرسة صدق الوفاء، فالمدرسة الناصرية فمدرسة العقاديين، فمدرسة عابدين، فالمدرسة المحمدية الأميرية، فمدرسة الجيزة، فمدرسة الفنون والزخارف المصرية، فأعضاء نادي خريجي مدرسة المحاسبة والتجارة المتوسطة، فطلبة مدرسة المحاسبة والتجارة المتوسطة، فطلبة مدرسة مشتهر الزراعية، فطلبة الأزهر الشريف، فالمدرسة الإكليزيكية القبطية، فمدرسة إيلانيس الإسرائيلية، فمدرسة المعلمين الأولية في القاهرة، فمدرسة المعلمين التابعة لمجلس مديرية الجيزة، فوفد من طلبة مدرسة بني سويف، فطلبة مدرسة دار العلوم، فمدرسة القضاء الشرعي، فمدرسة الفنون والصنائع السلطانية الأميرية، فطلبة مدرسة التجارة العليا وخريجوها، فطلبة مدرسة الهندسة، فالحقوق، فطلبة الحقوق في الجامعة المصرية، فطلبة مدرسة الحقوق الفرنسية، فمدرسة الزراعة العليا، فمدرسة المعلمين العليا، فمدرسة الطب السلطانية. وكانت كل مدرسة تحمل علمها منكبًا وصور الشهداء وباقات الزهر.

وتلا الطلبة أعضاء المحفل الوطني المصري الأكبر، وكان يتقدمهم حضرة صاحب العظوفة الأستاذ الأعظم إدريس راغب بك وأمامه حامل علم الماسون، فموظفو وزارة المعارف العمومية، فوفد من الجيزة تصحبه الموسيقى تعزف بنغماتها المحزنة، فموظفو التلغراف المصري، فأعضاء نادي النسر الذهبي، فنادي المتحف الفني، فنادي موظفي البريد، فموظفو وزارة الحربية، فنادي المعارف، فوفود من الجمعيات اللبنانية يحملون علم لبنان الجديد وهو أبيض في وسطه شجرة خضراء تمثل أرز لبنان، فجمعية اتحاد الشبان المسيحيين، ويليهم أعضاء نادي النجم الأبيض، فتلميذات جمعية المرأة الجديدة، فالآباء القساوسة، فموسيقى ملجأ الأيتام التابع لوزارة الأوقاف، فطلبة الطب البيطري. ويلي هذه الجموع كلها نعشا المرحومين أحمد طلعت ورزق يعقوب، فنعشا المرحومين فريد رزق الله وحسين چلبي ملفوفين في الراية المصرية، وأمامهما أكاليل لطيفة بيضاء محمولة على أيدي كثيرين من الرجال، فالمشييعون من العظماء والكبراء والأعيان والتجار

يتقدمهم حضرة صاحب السعادة الفريق شحاتة كامل باشا كبير الياوران في القصر السلطاني موفداً من قبل عظمة السلطان، فمندوب من فخامة نائب الملك، فمندوب من قائد القوات البريطانية في القطر المصري، وآخر من سمو الأمير عبد الله أحد أنجال ملك الحجاز، فحضرة صاحب السعادة محمد شكري باشا نائباً عن وزارة الحقانية، فحضرة صاحب السعادة إسماعيل حسنين باشا نائباً عن وزارة المعارف العمومية، فحضرات أصحاب الدولة والمعالى والسعادة حسين رشدي باشا وجعفر ولي باشا وإسماعيل صدقي باشا وعبد الخالق ثروت باشا وأحمد حشمت باشا ويوسف سابا باشا، والجنرال السير جيلبرت كلايتون، والمستر رجنالد بترسون مستشار وزارة المعارف العمومية، ومحمود فخري باشا، فالشيخ الجليل محمود سليمان باشا رئيس لجنة الوفد المركزية محوطاً بأعضاء لجنته الأمثال، فأخرون ممن لا تحضرنا أسماؤهم.

ويلى هذا الجمع العظيم كله موظفو وزارة المالية، فموظفو مصلحة الأملاك، فموظفو نزع الملكية، فموظفو المطبعة الأميرية، فأعضاء نقابة الحلاقين، فموظفو مصلحة الورش الأميرية، فأعضاء نقابة عمال الصنائع اليدوية، فموظفو مصلحة السكك الحديدية، فموظفو وزارة الزراعة، فموظفو مصلحة الصحة، فتجار الصاغة والجوهرية، فأعضاء جمعية تضامن العمال، فأعضاء نقابة عمال النسيج وملحقاته، فأعضاء سائر النقابات الأخرى، ومن جملتهم أعضاء نقابة الترام في القاهرة ومصر الجديدة، فأرئال من السيارات والمركبات مجللة بالرايات المطوّقة بشارات الحداد تقل كرائم العقائل والأوانس الوطنيات، فثلة من فرسان البوليس جُعلت ساقفة للموكب لتمنع إطباق العامة عليه.

وقد سار الموكب على هذا النظام المؤثر وكان يموج بالمشيعين موجاً حتى تكاد تحسب الجماهير بحرّاً زخاراً وتوايبت الشهداء سفناً عائمة فوقه، وكان الموكب يتحرك كأنه كتلة واحدة لشدة التزامهم، وكنت لا تسمع غير أصوات النائحات من كل ناحية، وقد أغمي على بعض السيدات من التأثير.

واخترق الموكب عند سيره من محطة القاهرة ميدان باب الحديد، فشارع نوبار، فشارع كامل، فميدان الأوبرا، فشارع محمد علي، فجامع قيسون حيث أُقيمت الصلاة على المرحومين أحمد طلعت وحسين چلبى. ثم انقسم الموكب إلى أربعة أقسام، الأول سار بالمرحوم رزق يعقوب مخترقاً الحلمية الجديدة، فدرب الجماميز، فالسيدة زينب، فمصر القديمة إلى دير مار مينا بقم الخليج، وكان يرافقه الأستاذ محبوب بك ثابت موفداً من لجنة الاحتفال.

والثاني سار بالمرحوم فريد رزق الله إلى دير أنبا رويس بالمحمدي مخترقاً شارع الخيامية، فالسكرية، فالغورية، فأمر الجيوش، فالحسنية، فشارع النزهة، فشارع عباس، وكان يرافقه معالي جعفر باشا ولي وعلي بك إسماعيل موفدين من اللجنة. والثالث سار بالمرحوم أحمد طلعت مخترقاً شارع محمد علي، فميدان القلعة، فشارع الإمام، وكان يرافقه علي بك لهيطة ومصطفى بك النحاس. والرابع ذهب إلى قرافة المجاورين، وكان يرافقه سعادة محمد عبد الخالق مذكور باشا.

وقد لوحظ أثناء مرور الجنازة في ميدان الأوبرا أنها استغرقت نحو ثلاث ساعات تعطل في أثناءها سير قطر الترام في القاهرة والضواحي. وورد على إدارات الصحف ألوف من الرسائل التلغرافية والبريدية والمرائي، وقد كانت تألفت لجنة لإقامة حفلة تأبين بدار الأوبرا برعاية حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا، مؤلفة من حضرات أصحاب السعادة والعزة محمود سليمان باشا وإبراهيم سعيد باشا وعبد الخالق مذكور باشا وأمين سامي باشا وعبد الرحمن فهمي بك وواصف غالي بك وعبد الستار الباسل بك والدكتور حافظ عفيفي بك وأمين الراجحي بك وداود أفندي بركات. ولما دنا موعد الاحتفال أوقفت لأمر لا نعلمه، بيد أن الأمة أقامت حفلات التأبين في سائر مدن القطر وفي مدارس القاهرة العالية والثانوية وفي المجتمعات العامة، وسيرد تفصيل ذلك في موضعه.

(٥) عدد مشيعي الجنازة

قدر بعض الذين شهدوا جنازة الشهداء معنا أن عدد المشيعين يبلغ أربعمائة ألف نسمة، وقد كانوا لا يقلون عن ذلك. ففي ذمة الله أيها الشهداء! لقد كان مصابنا فيكم عظيماً وخطبنا جسيماً، ولكن الأمة التي اعتادت أن تتحمل الكوارث بصبر وثبات ستتحمل هذه أيضاً وإن ضاق بها ذرع الصبر وغالبها الدمع والجزع. ففي ذمة الله أيها الشهداء الأعزاء.

(٦) احتفال مدينة قنا بتأبين الشهداء

في مساء السبت ٨ مايو ١٩٢٠ الساعة ٨ مساءً اجتمع مئات من أعيان قنا وأدبائها وموظفيها في المسجد «العتيق» بناءً على دعوة من جمعية «الشبيبة الوطنية» بقنا، وكان المسجد مجللاً بالزهور والرياحين، والأعلام على شرفاته منكسة، وكانت منصة الخطابة محاطةً بالزهور وشارات الحداد، وكان علم الاتحاد الذي يجمع بين الهلال والصليب يرفرف عليها ويملاً قلوب المجتمعين من العنصرين أملاً وحياءً في المستقبل رغم هذا الموقف الرهيب، وكان بجوار منصة الخطابة صورة جامعة للشهداء عليها إطار من الزهر والرياحان.

وافْتُتِحَت الحفلة عند الساعة الثامنة ونصف بتلاوة آيات الذكر الحكيم وكان الخشوع بادياً والأسف مخيماً والحزن عاماً وال سكوت عميقاً.

وما كاد المقرئ يختم تلاوته حتى وقف الأديب محمد أفندي محمود سكرتير مجلس مديرية قنا، وكان قد انتُخب رئيساً للحفلة، فارتجل كلمة الافتتاح. ثم دعا الأستاذ الشيخ علي إسماعيل الإدفاوي فألقى كلمة أَلَمَ فيها بذكر مجد مصر القديم والآمال التي تحوم حول الشهداء ورفقائهم المحروسين بعناية الله في إحياء معالمة التي دَرَسَتْ وآثاره التي عَفَتْ، وألقى كلمة مؤثرة في تأبين الشهداء. ثم دعا بعده الأستاذ الشاعر الشيخ علي إبراهيم عيد الجيزاوي من خريجي الأزهر الشريف وكبار التجار بالوجه القبلي، فألقى هذه القصيدة التي أسالت الدموع وحركت الشجون، وقد ضمن الشطر الأخير منها تاريخاً محكماً لوفاة الشهداء وجعله مطلع القصيدة وختامها فجاءت محبوبكة الطرفين، وهي:

طويتم محبين للمكرمات	فيا لك من أنفـس عالياتٍ
هوى عقد آمالنا وتوارت	دراريه في التـرب منتثراتٍ
أفي كل يوم لمصر خطوب	تفتت أكبادها الدامياتِ
دهتها الحوادث من كل فج	وجاءت بكُلِّـلِها مسـرعاتِ
أبادت بصرح بنته ورامت	رجوع معالمها الدارساتِ
فقد قام نخبة أبنائها	إلى الغرب يستبقوا في الحياةِ
ولبوا النداء نداء المعالي	وما علموه نداء المماتِ

نفوس عوالي كنوز غوالي مثال الكمال وخير نبات
فما وصلوا الغرب حتى دهاهم هَـصُور من الأسد الضاريات

ومنها:

ألا لا رعى الله يوماً عبوساً تولى بأفلاكنا النيّرات
مصاب بأودين حل فأدمى فؤاد الكنانة بالزفّرات
وقد عم في الكائنات أساه فصرن يغرّدن بالحسرات
ألا فاذكروا أهل روما ومن تا بعوهم فيا لهم من أساة!
أجلّوا بني النيل أي جلال وفاضت محاجرهم عبرات
ويوم سروا خاشعين سكوّتا على مَهَل ناثري الزهرات
فلست ترى غير قلب خفوق ولؤلؤ دمع من الباكيات
لك الشكر طليان يا خير شعب عرفناكم قبل أي ثقات

ومنها:

ويا شهداء غرام المعالي ماآثركم لم تنزل باقيات
فردّوا الجنان بأعلى الفرا ديس واسمعوا على هامة الشرفات
وإن جاءكم مصطفى فريد لكي يسألكم عن الأمنيات
فقولوا تركناهم ساهرين على وشك ذللوا العقبات
عليكم من النيل ألف سلام ومن مصر مستمطر الدعوات
ولا زال يَهْمِي عليكم إلهي بمننته صيّب الرحمات
إذا ما نُعي المجد وهو يؤرخ طويتم محبين للمكرمات

سنة ١٢٣٨

[طويتم = ٤٦٥، محبين = ١١٢، للمكرمات = ٧٦١]

ثم نهض بعده الأستاذ الشاعر الشيخ مصطفى محمد المملوك المدرس بمدرسة ولي العهد بقنا ومن خريجي مدرسة دار العلوم فوقف وألقى قصيدة غراء، مطلعها:

تبكي البلاد شاباً كان يحميها يا ليت ما نأى عن ثغر واديها

ومنها:

ما للخطوب غدت دوماً تعاكسنا	فهل إلى مصر قد أَلقت مراسيها؟
واثُكل مصر على ما كان فقدهم	يهدُّ ركنًا حصينًا من معاليها!
فغضَّ يا دهر طرفًا عن شبيبته	أكنت من حزبها أم من أعاديها
وجُدَّ يا شعب فيما بت تنشده	لعل مصرك تحظى من أمانيتها
واصبر على الدهر لا تظهر له جزعاً	فهي المقادير تجري في مجاريها

ثم تلاه الأديب مصطفى أفندي عبد الرحمن الطالب بمدرسة الهندسة السلطانية، فألقى كلمة استرعت الأسماع وصعدت الزفرات، ووقف بعده الشيخ محمد المحرزي المدرس بمدرسة الأمريكان فارتجل كلمةً أبان فيها مآثر أولئك الشهداء وشجاعتهم الأدبية وإقدامهم النادر وهم في سن الشباب.

ومن ثم وقف حضرة رئيس الحفلة فشكر الخطباء والحاضرين على اشتراكهم في تأبين الشهداء واستمطر لهم الرحمة من سماء الرضوان، وختمت الحفلة بتلاوة أي الذكر الحكيم، وكانت الجمعية المحتفلة قد أعدت الصدقات فوزعتها للفقراء صدقةً على أرواح الشهداء، وانفض المحتفلون بسلام.

وكان الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم متولي الطالب بالقسم العالي بالأزهر الشريف قد أعد قصيدةً غراء لتُلقى في الحفلة، مطلعها:

يا مصر أدمى القلب موت بنيك من هاجروا يا مصر حباً فيك

(٧) احتفال كوم حمادة بتأبين الشهداء

في اليوم الأول من حمل شهداء العلم إلى أرض الوطن أقام أعيان مركز كوم حمادة سرادقاً فخماً، صُفَّت فيه المقاعد ووُضِع فيه منبر للخطابة وذلك احتفالاً بتأبين شهداء العلم والوطن الذين كانت مصيبتهم من المصائب العامة التي يشترك فيها الناس على اختلاف مراتبهم وتباين مشاربهم.

وما وافت الساعة المحددة للحفلة حتى أمَّ السرايق نحو الثلاثة آلاف نسمة يتقدمهم العمدة والأعيان ومعلمو المدارس لتخليد ذكرى أولئك الشبان المجاهدين الذين كانوا يؤمنون بعظمة بلادهم الخالدة ويعملون لمجدها ورفعته وتشييد صرح مستقبلها على دعامة قوية من العلم والعرفان لا تززعها الحوادث ولا تهدها عواصف الأيام. ومن ثم تعاقب الخطباء في اعتلاء منبر الخطابة وإلقاء كلمات الرثاء، وكان في مقدمتهم الشاعر البحيري محمد عبد الهادي عمار الذي كان في وفد كوم حمادة الذي سافر مع الأعيان والوجهاء لتشجيع جنازة الشهداء في الإسكندرية، فقد وقف وألقى هذه الكلمة النثرية المؤثرة:

أيها السادة

ما اجتمعنا في هذا اليوم إلا لنحتفل بذكرى شبان مخلصين ضحوا بشبابهم الغالي في سبيل العلم وخدمة الوطن.

نحتفل بأنجم كانت تتلأأ في سماء العلم فأفَلَّتْ، وزهور أذبلها القضاء في رياض مصر.

نحتفل بذكرى شباب فارق هذه الحياة الدنيا ولو استمهله القدر لكان عدةً لهذه البلاد المنكودة الحظ، وما كان أحوج الأمة لذلك الذكاء في ساعاتها الرهيبة وأوقاتها العصبية وهي تطالب بحقها في الحياة ونصيبها من الحرية والاستقلال التام!

نحتفل بمثال الشباب الناهض، والذكاء المشتعل، والهمة الوثابة، والحياة النامية.

نحتفل اليوم بذكرى غصون شباب عصفت بها يد الدهر فتقصفت. نحتفل بذكرى من فارقونا لورود مناهل العلم العذبة، واقتطاف ثمراته الجنية من رياضه الحافلة، ليعودوا حاملين لبلادهم الشرف والرفعة وليبعثوا مجدها الوطني الذي أورثهم إياه السلف الصالح والأجداد الأمجاد، فقطع القضاء عليهم الطريق وأوردتهم موارد الحتوف وأرغم الأنوف، وأسفاه!

نحتفل اليوم بإحياء ذكرى الشهداء بعد أن احتفلت بهم الأمة الطليانية في بلادها وفاءً منها لمصر وعطفاً على أبناء مصر، فما أكرم تلك الأمة وأوفى ذلك الشعب!

ولقد كان للوفد المصري، مثال الجهاد الوطني الصحيح، اليد الطولى في حمل رفاتهم إلى مصر على نفقته والعناية بهم تخفيفاً لمصاب الأمة فيهم، وتعزيةً لقلوب آبائهم المرزوءة، وما قام الوفد إلا بالواجب الوطني المقدس. نحتفل بإحياء ذكرهم وهم الشهداء الذين سيدخلون الجنة بغير حساب لأنهم هاجروا في سبيل العلم والوطن، وأراد بارئ النسمات أن يسكنهم جواره فأخذهم إليه، ونعم الجوار جوار الله! «وإنا لله وإنا إليه راجعون»! ألا رحم الله هذا الشباب الغض، هذه النفوس العالية التي تركت الأهل والأصدقاء وهي في مقتبل العمر للسعي وراء رفعة الوطن.

ثم أنشد قصيدته العصماء، منها:

يا قادمين إلى مصر وما وهنوا	في خدمة لا ولا ضلوا ولا أفنوا
إنا بكيناكمو يا فتية عرفوا	حق البلاد وفيكم يأسف الوطن
قضيتمو شهداء العلم فأنقشعت	عنكم سحابة دهر كله محن
ضللت عقلي إذ وافى النعي بكم	يسري بقول رجال العلم قد محنوا
وسايرتني هموم لو أبوح بها	إنّ لحارت لها من قولي الفطن
يا ويح برق لقد وافى بنعيكمو	من نعيه هاج في أحشائنا الشجن
يا ليتني قطعت أسلاكه إرباً	أو حلّ فيها الأسى أو أسكن الحزن!

وقد تلاه حضرة الأستاذ الأديب والشاعر المجيد الشيخ محمد علي خطاب، وألقى هذه الأبيات:

قضوا نحباً وما نالوا مرأماً	ب «أودين» وما وجدوا سلاماً
وولوا في سبيل العلم صرعى	وأمسوا في الثرى قوماً كراماً
أرادوا خدمة الأوطان حباً	برفعتها فأسكنهم رغاماً
وقد ركبو البحار وجاوزوها	أولي بأس شديد لن يراماً
ولما أن نجوا منها لُيوتاً	توخوا بر أوروبا عظاماً
هنالك سامهم سيف المنايا	وما وجدوا بقطرهما قواماً

(٨) حفلة التأبين الكبرى لشهداء العلم والوطن بدار المرحوم الأستاذ إسماعيل بك عاصم

رأت السيدة فاطمة هانم حرم الأستاذ المرحوم إسماعيل بك عاصم أن المصاب في شهداء العلم مصاب الأمة بأجمعها، فوزعت رقاع الدعوى على شريفات العقائل وكريمات الأسر وأعدت لهن بهو دارها، فصفت فيها المقاعد وأقامت منصةً للخطابة أُقيم بجانبها العلم المصري المحبوب منكسًا وموسومًا بشاره الحداد، وكان في صدر البهو صورة الشهداء الاثني عشر في إطار واحد مكللاً بالزهور.

ووقفت اثنتا عشرة تلميذة من تلميذات مدرسة البنات في ناحية من المكان بملابسهن البيضاء وأوشحتهن السوداء، فكن كالحمام المطوقة وكن يزدن الحفلة جلالاً والمكان رهبةً وخشوعاً.

وما وافت الساعة المضروبة لافتتاح الحفلة حتى غص المكان بالفضليات من عقيلات وزراء مصر وكبرائها وأديباتها وخطيباتها حتى ضاقت بهن الدار على رحبها، وكن لابسات ثياب الحداد، وكان الحزن يعلو وجوههن المشرقة بنور الأمل بمستقبل بلادهن فيزدن جلالاً على وقارهن ووقاراً على جلالهن، وكانت ربة الدار تقابل المدعوّات ويقابلنها بكلمات التعزية. وبعد افتتاح الحفلة بأي الذكر الحكيم قامت حضرة السيدة فاطمة هانم عاصم وألقت هذه الكلمة:

إليكم أقدم رثائي يا أنجماً هوت من سماء العلم، وإلى أرواحكم الطاهرة أوجه مقالِي يا حبات القلوب، إليكم أبث حزني يا عقدًا من الجواهر انتشرت حباته ثم فُقدت بين طيات الوجود، وكانت أمكم مصر توشك أن تتحلّى به. وعليكم أسكب الدمع الغزير يا باقة من الزهر جُمعت من مصر، وكنا نود أن نستنشق شذاها العطر ولكن حال الدهر بين ما نريد، فهناك في بلاد الغربة مع جميل رونقها هُصرت كما يهصر الحديد، هناك في بلاد الغربة تدرجوا بالدماء، هناك بعيداً عن أهمهم مصر ماتوا غرباء شهداء، فإليك يا مصر نقدم العزاء. ويمكن يا نساء الشرق يحق البكاء، ابكين هذه الوجوه النضرة، انتحبن على هذا الشباب الغض، ذهبوا متضافرين وكلنا آمال برجوعهم سالمين فائزين، وكلهم آمال بانضمامهم إلى رجال العلم العاملين، فإذا بنا وبهم وقد خيب الدهر آمالنا وأمالهم، فتباً لك يا دهر! هلاً رحمت شبابهم! هلاً أشفقت على آبائهم!

وهلاً ترأفت بقلوب أمهاتهم! لا هذا ولا ذاك، فنبأً لك من غادر خئون! القلوب تتوجع والعيون تدمع وإنا لفقدهم لمحزونون، أقمار هوت وآمال اضمحلت وعلوم قُبرت وشباب هُصر وأنوار أُطفئت ولم يبقَ منها غير هذه الرسوم التي لا تجيب، اضمحلت منهم الآمال فيا له من يأس قتال!

إنني أرى صورهم أمامي فهل يسمعون كلامي؟! نعم، نعم، فأرواحهم بيننا ممتزجة بأرواحنا، فمهلاً، مهلاً يا روعي يا أليفة الأحزان على من فقدت، لا تسترسلني في أحزانك وأفيقي.

اللهم إنني أتوسل إليك أن تلقي عليَّ الصبر لأتحمل بلاء الموت! الموت، الموت، وباليهول الموت! ما أصعبه! كم مَرَّق من قلوب وأدمى من مقل! سيداتي، أراني قد استرسلت في أحزاني لدرجة أنني شاعرة كأني الحزن المجسم بينكن الآن، هذا مع علمي وعلم حضراتكن أن الحزن لا طائل تحته، بل الواجب علينا أن لا نسترسل في أحزاننا مخافة أن تهبط عزائم شبابنا، ولنجعل نصب أعيننا قول الشاعر:

إذا مات منا سيد قام سيد قئول بما يرضي الكرام فعولُ

وإنني يا حضرات السيدات، مع احترامي لشعوركن السامي وتقديركن الأعمال الجليلة حق قدرها يسرني أن المرأة الشرقية قد قاربت أن تستعيد سابق مجدها ورفعتها، إذ كانت في ذاك العهد لها القدر المعلى والكلمة النافذة والفكرة الراجحة بين مصاف الرجال، فبتعاضدنا هذا مع مساعدة رجالنا العاملين أريد أن أقترح اقتراحاً هو عندي أجل وأسمى من كل ما عَمِل لأبنائنا الشهداء، وهو أنني أريد أن تقوم هيئة موقرة من رجال وسيدات لجمع مبلغ من المال يكفي لإرسال اثني عشر طالباً يتلقون العلم حتى النهاية ليكونوا شموساً لنا في المستقبل عوضاً عن أقمارنا التي غربت، ونكون في نظر جميع الأمم الغربية قد قمنا بأحسن تذكّار لتخليد ذكرى شهدائنا.

هذا وإنني أستمحكم العذر يا أيتها الأرواح الطاهرة الزكية إذا أنا قصرت في رثائكم الآن، فهناك في دار البقاء في جنة الخلد في فردوس النعيم سيقوم لكم رب هذا البيت بما هو أجل وأعظم كعادته في تكريم النابغين، فكم له من أياذٍ بيضاء! ولكنه راح ورحتم فسبحان من له البقاء!

ثم دعت بعد ذلك الخطيبات لإلقاء كلماتهن، فقامت الأنسة لبيبة حسن المدرسة بمدرسة عباس، وألقت هذه المرثية الشائقة المؤثرة:

سيداتي

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

لقد اندمل فؤاد العلم، وتصدعت جوانب مصر، وتزعزعت أركان الأهرام، وأزعجت رفات الفراغة من أهوال زلزال الصاعقة، ثم انفجرت براكين الأحزان فتطايرت قذائفها على آل وادي النيل، وأصابت نفوسهم حتى عم الخطب وساد الأسى. ابكِ يا مصر، واسكبي عبراتك على فتية قضت من أجل رفعتك وهنالك. قيل إنك لا تزالين في مهد حضارتك، ولم تأخذي من العلم القسط الذي يؤهلك لأن تقفي في صف الأمم الراقية، فعز ذلك على أبنائك فغادروك ليعودوا إليك رجالاً عاملين يصدون عنك تلك الغربة ويخرجون بك من ركن انزوائك، ذهبوا وكل آمالهم أن سوف يعودون إليك فيرونك مفككةً من أصفاد الرق وأغلال الاستعباد، ذهبوا وهم يتزودون منك بالهتاف لاسمك وحياتك وحريتك، ذهبوا بصدور تهيم بحب العلم وقلوب تضيئها شعلة الذكاء المصري الوهّاجة، ولكن عاجلهم القضاء فقضى على تلك الآمال وأطفأ تلك الشعلة حتى أظلمت في وجهك! فما أعظم بلواك يا مصر!

كان من بين أولئك أيتها السيدات من قضت السلطة بحرمانهم من التعلم في معاهدهم دون جرم لهم في ذلك سوى أنها رأت منهم هيأماً بحب ذلك الوطن وتفانياً في حب العلم الذي يستعيدون به مجد آبائهم المؤثّل، ولكن ترى ماذا كانت نتيجة الحرمان؟ لم يثُنْ ذلك من عزمهم شيئاً، بل زادهم تعلقاً بأذيال العلا فغادروا بلادهم إلى غيرها، ولكن أبى القدر إلا أن يفجع مصر

فيهم وهم من أعز أبنائها، ففي ذمة الله ذلك الشباب الغض، وألف سلام على تلك الأرواح العالية، وأنت يا مصر فخففي عنك قليلاً لأنك وإن كنت ثكلتبيهم فقد عُدوا من صفوة أبنائك، فهم لم يستشهدوا حتى سجلوا لك ولهم مفخرة عظمى وأنزلوا علينا آية نتعلم منها الشهامة والعزم والإقدام ورخص النفوس أمام خدمتك.

وأنتم يا آل العلم، فاستمطروا الرحمات على أولئك الشهداء. وأنت يا ماء النيل، فانزل برداً وسلاماً على ثراهم. وأنت يا خير الراحمين، أغدق عليهم رحماتك ورضوانك، وهب مصر الثكلي عزاءً وصبراً واجعل لها خير العوض في أبنائها العاملين!

ثم وقفت الأنسة بسيمة محمد خريجة المدرسة السننية، فألقت كلمتها هذه:

سيداتي

تلك المصيبة أنست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيانُ

المصاب عميم، والخطب جلل، مصاب تتصدع له المسامع، وترتج منه الأضالع، مصاب أذاب الدموع الجامدة، وألهب الهموم الخامدة، مصاب زلزل الأرض وأقرح الأكباد.

إيه يا مصر! ما للقضاء في أمرك يتحكم، ومن شبابه يتهمك؟! لا يخشى الدهر زفراتنا الحارة وأنيننا المحزن فيكيف عن التمثيل بنا: هذا صريع ظلم وعدوان، وذلك صريع وطنية وأمان، أو ضحية أمنية وآمال.

أي مصر، لقد أصبحت بعد الترف والمدنية والرفعة مسرّحاً للنوازل والكارثات، آجال المصلحين فيك قصيرة، وأرواح العاملين لحياتك مخطوفة، ولم يبق لنا بعد هؤلاء إلا ذكراهم والتأسي لفقدانهم، وتلك والله أكبر بلية أودت براحة أمة تعمل لغاية هي من أجلّ الغايات وأخطرها، فصبراً صبراً على هذا الرُّزء!

سيداتني

ما هذا الاجتماع اليوم إلا مأساة تندب فيها نساء النيل شباباً قضى في سبيل العلم، قضى في سبيل أشرف غاية وأجمل مقصد، قضى في سبيل نصره الأوطان بعيداً عن الأهل والديار. ففي ذمة الله أرواح فارقت ربها إلى النعيم وخلّفت بعدها في النفوس آلاماً تستقر نارها ولا تنطفئ أبداً وفي القلوب جروحاً لا تندمل، خلّفت نفوساً كانت قد علّقت آمالها على هذا الشباب الناصر في نصره الأوطان وعز البلاد:

هيهات أن يأتي الزمان بمثلهم إن الزمان بمثلهم لبخيلُ

في ذمة الله أرواح خلصت من هذه الحياة وهي في ميدان الجهاد، فأقبلت على العالم الباقي تقيّة طاهرة تسمع وهي مقبلة أصوات المنادين:
﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

ثم قامت بعدها حضرة الأنسة الفاضلة ثريا علي العموري، فألقت مرثاة مؤثرة نقتطف منها ما يأتي:

أيتها السيدات

لقد فجعنا فاجعةً كبرى بموت هؤلاء الشبان الذين اغتربوا عن وطنهم في سبيل العلم لكي يعيدوا بعد ذلك مجده القديم وعزه التالد، ولكن الموت لم يمهلهم بل كان لهم بالمرصاد فاختطفهم من بين تلك الحياة التي تمننتها لهم بلادهم وماتوا موةً سجلت لهم ذكراً عالياً وفخراً باقياً.
فيا عيون أمطري دماً، ويا قلوب تفتطري حزناً وأسى على هؤلاء الشهداء الذين لم تمهلهم أيدي القضاء بل أنشبت فيهم أظفارها قبل أن يبلغوا مأرباً أو ينالوا مطلباً.

فذهبوا وفي القلوب من أجلهم حشرات مترددة وزفرات متصعدة، وفي مثل هذا الخطب قد عظم الأمر.

ونهضت الدكتورة الأدبية أمينة محمد فألقت هذه الكلمة الطيبة:

أيتها السيدات الفضليات

ما كاد وادي النيل الخصب يُنبث زهرات غضة كانت حليةً لجيده حتى جنت يد المقادير جمال تلك الأزاهير، وأصبح ما كان من قبل بهجة وادي النيل مبعث الحزن ومصدر الأسى، كانت تلك الزهرات تتطلب ماءً من العلم ومنهلاً من العرفان، فوجدت في ذلك الماء ظمأها، وفي المنهل العذب موتها الزؤام. ماتت وهي تسعى وراء حياتها وحياة بلادها، وكيف لا يكون ذلك كذلك والحياة ليست إلا ما يجنيه الإنسان من العلم وما يعلمه في سبيل الإصلاح والخير وفائدة سائر البشر؟

وأزاهر شرقت بما تحيا به فذوت وأورق شوكتها بفؤادي

كانت مصر تهتم بأن تكفكف دمعها الذي سال من أجل المصائب التي دهمتها قديماً ولكن سرورها لم يتم، إذ إن الفجر الجديد [الذي] بدأ ينتشر منه نور الأمل انطفأ فجأةً وجلَّه الظلام الدامس. مات الذين كانوا ضحكةً في فم مصر الحزينة وأملًا مشرقًا في ظلام اليأس، مات شبانها النجباء وقبلهم مات كامل في ريعان شبابه وفريد بعيدًا عن أوطانه وغيرهما، لقد قيل إن قلب مصر لم ينبض إلا من جراء حادثتين: موت مصطفى كامل وكارثة دنشواي، أما اليوم فقد نبض قلب مصر للمرة الثالثة، إذ دهمها الموت في أعز شيء لديها، دهمها في خيرة أولادها وخلاصة نجبتها. تجتاز مصر التسعة اليوم عقبةً سياسيةً كئودًا، وهي في حاجة إلى جميع أولادها وكل قواتها لتحمل في سبيل نيل آمالها المنشودة، ولكن القدر لم يشأ أن يتركها تدأب وتجاهد وإنما جعل يخطف منها عاملاً بعد عامل ويطفئ أملًا بعد أمل كأنه يريد أن يصرفها عن عزمها، ولكن هيهات ذلك! فإن كل جثة تذهب في سبيل إعلاء شأن مصر لا تزيد المصريين إلا تمسكًا بمطالبهم واعترافًا في سبيل نيل مأربها. إن كل جثة

من جثث أولئك الشهداء ستظل تذكراً لكل مصري، تذكار المجاهدة في سبيل سعادة مصر والمصريين، وهيهات أن يغفل مصري عن واجبه ما دام يجد من أولئك الشهداء مذكراً ومنبهاً. إن المصري لا يحقر شهداءه أو يضيع ما بناه أولئك المجاهدون بدمائهم الزكية الطاهرة. وإنني أطلب من الله أن يلهم مصر والمصريين جميل الصبر عن هذا المصاب الجلل.

وألقت السيدة فردوس بالعباسية كلمة مؤثرة نقتطف منها ما يأتي:

أيتها السيدات المحترمات

علوت منصة الخطابة قبل الآن ولكن شعوراً استفزني وعاطفة حدث بي أن أقوم بينكن خطيبة لأعبر عما امتلأ به فؤادي من الأسى والحزن على شهداء العلم. سيداتي العزيزات: كنت أتمنى أن يهبني سبحانه وتعالى ملكة الشعر ويلهمني قريحة وقادة في النثر حتى أوفي هذا المقام حقه من رثاء هؤلاء الأبطال الذين ذهبوا ضحية العلم واستشهدوا في سبيل المدنية والارتقاء.

نعم، إنني أتكلم الآن بقلب منفطر يكاد يتمزق، وفؤاد كليم يكاد يلتهب حزناً وولهاً على هؤلاء البواسل الذين قضوا نحبهم في سبيل العلم المجيد. نعم؛ كنت أود أن أسطر بدمي بدل دمعي مرثيةً لهؤلاء الشجعان الذين قصفت يد المنون غصن شبابهم الرطب قبل أن يرتشفوا من منهل العلم الراقي الذي فدوه بأنفسهم فطوبى لهم! نعم، همدت أجسامهم ولكن أرواحهم لا تزال ترفرف فوق رؤوسنا وتسري مبادئهم مندمجة في دماننا، فوالله إن أثرهم خالد وذكرهم باق.

سيداتي، إنني لعاجزة عن أن أوفي هؤلاء الأبطال ما لهم من الحق في الرثاء، فإني ما قمت إلا لأظهر ما اشتدت به عواطفني نحو شهداء الغربة والعلم، فما يقع من التقصير في إيفائهم حقهم من التمجيد والتكريم فمعذرة، حيث إنني لست أوسع علماً منكن وأكثر درايةً في هذا المجال. وها إنني أكرر عبارات الأسى والحزن على أبنائنا، ولتحَيِّ ذكراهم منطبعةً على قلوبنا إلى الأبد.

حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرارٍ

بينما يُرى الإنسان فيها مخبراً حتى يُرى خبراً من الأخبارِ

وقامت بعدها الآتسة الأدبية منصورة علي، وألقت هذه المراثة:

أيتها السيدات، إن فاجعتنا بموت هؤلاء الشهداء عظيمة جداً لا يحتملها قلب مصري شرب من ماء النيل أو تغذى من ثمار مصر، فقد بكت السماء بدموعها الحارة وشجّت الطيور بنغماتها المحزنة، فأهاجت ما في القلب من الأسى وحركت ما في المهجة من الشجن.

أيها السيدات، جرت العادة بأن الدهر إذا داهم قومًا داهمهم بخطب واحد يمكن احتماله، أما مصر فكان حظها من الدهر أن داهمها بخطوب متعددة وأرزاء مختلفة، ففي كل يوم فاجعة جديدة ورزء أعظم مما قبل: رمانا الدهر أولاً بموت المرحوم محمد بك فريد فحزنًا عليه كثيرًا، ولكن ما وضعناه من الأمل في غيره من الأبطال العاملين خفف عن القلب كثيرًا، ورمانا ثانيًا بموت المرحوم إسماعيل بك عاصم هذا الرجل الوطني الغيور، فأقّتم الجو في أعيننا وزادت همومنا وعظمت نكبتنا. هذا كله ولم يغفل عنا لحظة واحدة يدعنا نفرج فيها همنا وكربنا، فقد رمانا بموت هؤلاء الشهداء الذين هاجروا من بلادهم ليستقوا العلم من مناهله ويعيدوا للوطن ما كان له من المجد القديم وكأنما الموت كان لهم بالمرصاد، فغفر الله لهم وأسكنهم الجنة وألهم أهلهم الصبر والعزاء، إنه سميع قريب.

قصائد مشاهير الشعراء في رثاء الشهداء

رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي بك

وللمجد ما أبقي من المثل العالي
حياة لأقوام ودنيا لأجيال
كريم المصطفى من شباب وآمال
إلى حادث من غربة الدهر قتال
بأبيض من غسل الملائك سلسال
فعادت رقيقاً من عيون وإظلال
وفي العصر الخالي وفي العالم التالي

ألا في سبيل الله ذاك الدم الغالي
وبعض المنايا همة من ورائها
أعينني جوداً بالدموع على دم
تناهت به الأحداث من غربة النوى
جرى أرجوانياً كُمَيْتاً مشعشعاً
ولاذ بقضبان الحديد شهيد
سلام عليه في الحياة وهامداً

* * *

رياحين هام في التراب وأوصال
ذوت بين جلّ في البلاد وترحال
هلوع وأمّ ب «الكنانة» مِثقال
بمضطرب في البر والبحر مِرقال
ويُلقي على القلب الشّجَا غير قوَال
فمن هالة عطل ومن منزل خال
مناحة أقمار ومأتم أشبال

خليليّ قوما في رُبى الغرب واسقيا
من الناعمات الراويات من الصبا
نعاها لنا الناعي فمال على أب
طوى الغرب نحو الشرق يعدو مليكه
يُسِرُّ إلى النفس الأسى غير هامس
سرى فنعاهم للديار أهلة
سماء الحمى بالشاطئين وأرضه

* * *

بساطاً ولكن من حديد وأثقالِ
رمى بذراعيه وبالمرجل الغالي
غداة على الأخطار ركاب أهوالِ
بآخر من دهم المقادير ذيالِ
كَمِيَّانٍ في داجٍ من النُّفْعِ مُنْجَالِ
على ناعم غُضٍّ من الزهر منهالِ
طلوع المنيا من ثنيات آجالِ
إلى سفر ينوونه غير قفالِ

وأدهام تدري الريح أن قد أعاذها
يريك جياذ السبق في الحضر كلما
يقبل من الفتیان أشبال غابة
ثنته العوادي دون «أودين» فانتنى
قد اعتنقا تحت الدخان كما التقى
فسبحان من يرمي الحديد وبأسه
ومن يأخذ السارين بالفجر طالعاً
ومن يجعل الأسفار للناس همه

* * *

أقام يتيمًا في وصاية الآلِ
لنزاع أمصار على الحق نزالِ
وضجة أتراب عليهم وأمثالِ؟
لقد ظفروا بالبعث من تربها الغالي
إذا اعتل رهن المحبسين بأشغالِ
تلقي شفاهًا مظلماً كاسف البالِ
مداها ولم توصل ضحاها بأصالِ
مصاحف لم يعل المصلي على التالي
كتابوت موسى في مناكب إسرالِ
هلالية من راية النيل تمثالِ
فلم تلق إلا في خشوع وإجلالِ
إلى منزل من جيرة الحق محلالِ
وهزت بها «حلوان» أعطاف مختالِ
وبين ابتسام الثغر بالموكب الحالي
على عهد إسماعيل ذي الطول والنالِ
وتلك المنيا لم يكن على بالِ
وإن جر أذيال الحداثة والخالِ
ولكن عجيب عيشه عيشة السالي

فيا ناقلهم لو تركتم رفاتهم
وبين غريباً لدي وكافور مضجع
فهل عطفتم رنة الأهل والحمى
لئن فات مصرًا أن يموتوا بأرضها
وما شغلتم عن هواها قيامة
حملتم من الغرب الشموس لمشرق
عواثر لم تبلغ صباها ولم تنل
يطاف بهم نعشا فنعشا كأنهم
توابيت في الأعناق تترى زكيةً
ملففةً في حلة شفقية
أظل جلال العلم والموت وفدها
تفارق دارًا من غرور وباطل
فيا جلبة رفت على البحر حليةً
جرت بين إيماض العواصم بالضحي
كثيرة باغي السبق لم يُر مثلها
لك الله! هذا الخطب في الوهم لم يقع
بلى كل ذي نفس أخو الموت وابنه
وليس عجيبًا أن يموت أخو الصبا

بمعترض من حادث الدهر مغتالٍ
إلى المجد تركب متن أقدر جوالٍ
إذا الشيب سن البخل بالنفس والمالٍ
ولا تذكروا الأقدار إلا بإجمالٍ
تأفف قال أو تلطف محتالٍ
وليس إذا الأعلام خانت بخذالٍ
وصول مساع لا ملوم ولا آلٍ
ولا يحرزون السبق أنصاف جهالٍ
بياناً جزاف الكيل كالْحَشَفِ البالي
فمن لجليل الأمر أو معضل الحال؟
نفوس الحواريين أو مُهَجِ الآلِ
ترنم أبطال بأيام أبطالٍ
على الضروب السبع في الأبد الخالي
رجعتم لعم في القبائل أو خالٍ

وكل شباب أو مشيب رهينة
وما الشيب من خيل العلا فاركب الصبا
يسن الشباب البأس والجود للفتى
ويا نشأ النيل الكريم عزاءكم
فهذا هو الحق الذي لا يرده
عليكم لواء العلم فالفوز تحته
إذا مال صف فاخلفوه بآخر
ولا يصلح الفتیان لا علم عندهم
وليس لهم زاد إذا ما تزودا
إذا جزع الفتیان من وقع حادث
ولولا معان في الفدا لم تعانه
فغنوا بهاتيك المصارع بينكم
ألستم بني القوم الذين تكبروا
رددتم إلى فرعون جداً وربما

قصيدة شاعر مصر الكبير محمد بك حافظ إبراهيم

إنما الأجر لمفجوع صبر
في ربوع الشرق مشئوم الأثر
لم يزلزلها قرار المؤتمر
ساكن الأرض بأدهى وأمر
فجنى أجمل طاقات الزهر
فتهاووا قمرًا بعد قمر
نمة الله قضى الاثنا عشر
في مسار الغرب من صرف الغير؟
وأصم السمع منا والبصر

علمونا الصبر تطفئ ما استعر
صدمة في الغرب أمسى وقعها
زلزلت في أرض مصر أنفساً
ما اصطدام النجم بالنجم على
قطف الموت بواكير النهى
وعدا الموت على أقمارنا
في سبيل النيل والعلم وفي
أي بدور الشرق ماذا نابكم
نبأ قطع أوصال المنى

كم بمصر زفرة من حرها
 كم أب أسوان دام قلبه
 ساهم الوجه لما حل به
 كم بها والدة والهة
 ذات نوح تحت أذيال الدجى
 تسأل الأطيّار عن مؤنسها
 تسأل الأنجم عن واحدها
 تهب العمر لمن ينبئها
 ويح مصر كل يوم حادث
 هان ما تلقاه إلا خطبها
 قد ظلمتم مجدهم في نقلهم
 فسواء في تراب الشرق أم
 أأبيتهم أن نرى يوم لنا
 أضننتم أن تقيموا بينهم
 ومزاراً كلما يممه
 ودليلاً لابن مصر كلما
 كم ملأت لنا في أرضهم
 فمن رمز العصور قد خلت
 فاجعلوا أقواسنا اليوم بها

كنس الأعفر والطير وكر!
 مستطير اللب مفقود الظهر
 سادر النظرة من وقع الخبر
 عضها التُّكل بنار فعقر!
 علم الأشجان سكان الشجر
 كلما صفق طير واصطخر
 كلما غور نجم أو ظهر
 أنه أفلت من كف القدر
 وبلاء ما لها منه حفر!
 في تراث من بنيها مدخر
 إنما نقلتهم إحدى الكبر
 في تراب الغرب كان المستقر
 في ربوع العلم شبراً فنُسِر؟
 شاهداً منا لكتاب السير
 ناشئ حيّاً ثراه وادّكر
 قام في الغرب بمصر فافتخر؟
 صورة معجزة بين الصور!
 أشرق العلم عليها وازدهر
 خير رمز لرجاء منتظر

* * *

أمة الطليان خففت الأسى
 جمعت كفاك عقداً زاهياً
 وسعى كل امرئ مفضل
 وبكت أفلاككم أفلاذنا
 وصنعتم أحسن الله لكم
 قد بكينا لكم من رحمة
 فحفظتم وشكرتم صنعنا

بصنيع من أياديك الغرر
 من بيننا فوق واديك انتثر
 بادي الأحزان مخفوض النظر
 بدموع روضت تلك الحفر
 فوق ما يصنعه الخل الأبر
 يوم «مسينا» فأرخصنا الدرر
 وبنو الرومان أولى من شكر

* * *

أي عناوين العلا أشبهتموا بسملات الله تَوَجَّن السور
أي شباب النيل لا تقعد بكم عن خطير المجد أخطار السفر
إن من يعشق أسباب العلا يطرح الإحجام عنه والحذر
فاطلبوا العلم ولو جشَّمكم فوق ما تحمل أطواق البشر
نحن في عهد جهاد قائم بين موت وحياة لا تَقِر

ورثاهم حضرة الشاعر المعروف عبد الحليم المصري بهذه القصيدة:

أفيك مجن يا قلوب من الردى ومناك لنفس يا عيون وفاء؟
سلام على من طالعوا الموت فجأة ولما ينوه بالمنية داء
فيا باقةً من زهر مصر تضوعت نُثِرت على الوادي فأئت هباء
وبقيا ورود فاح من جانب الربى عبيران منها فطنة وذكاء
نودعكم لم ندر أن سيضيفكم من الله قبل الأصدقاء قضاء
ولو علمته الأمهات لشفعت عيونًا فأجدى قبل ذاك بكاء
أفي حين نرجو من نواحيكمو المنى يقولون من ترجونهم شهداء
ونصبح نرجوكم عظامًا بواليا كما ترتجى ورد النмир ظماء؟
بنا لو حملناها لنطرح دونها من الدمع ما لم تدخره سماء
كنانة آمال نريش سهامها هوين وما أدى السهام مضاء
يصوبها الرامون منهم مسيئة لأغراضهم والله ليس يشاء
تفديكمو عنا العيون بضوئها وهيئات منكم أعين وضياء
وإنكم عن مصر لم تتغربوا ونحن بمصر بعدكم غرباء
عراس ساحات خضبتكم أكفها فهل من رأى الحناء وهي دماء؟
تريف خزامها علينا كأنما يرف على وجه العليل شفاء
أفوق الثرى يأس لنا ومنية وتحت الثرى عيش لنا ورجاء؟
فيا مصر كم ذا روعتك مصيبة لها بالخطوب التاليات دواء!
ألا ركب إلا وهو فيك جنازة ولا شعر إلا وهو فيك رثاء

ولا رعد إلا وهو فيك صواعق	ولا صبح إلا وهو فيك مساءً؟
صبرنا على ما يجزع الصخر دونه	وأكبر ظني أننا كرماء
وعدنا لحكم الله طوعاً لذاته	وعلماً بأن الحب فيه بلاء
وحيث يكون العمر كانت منية	وحيث يكون الحي كان فناء
فلا تقنطوا من رحمة الله خيفةً	فموت الفتى والخوف منه سواء
ولا تأخذونا بالقصور فإنها	كوارث تعيي دونها الشعراء

إلى مشيحي الشهداء بالقاهرة

ورثاهم حضرة الشاعر الأديب سيد يوسف أفندي (المدرس) بقوله:

انثروا الدمع وسيروا خشعا	واحملوا تلك الشمس الأربعا
واغرسوا في التراب أزهاراً لنا	ما أحيلاها شذاً ما أبدعاً!
وأودعوا الآمال في تابوتها	إن في التابوت شعباً مودعاً
وأنصتوا للموت في تجواله	فجلال الموت في أن نسمعاً
خبت الأضواء جمعاً عندما	ضمت الأرض نجوماً طلعا
واكفهر الجو في أرجائنا	يا الهول اليوم يوم الأربعا
رب إن الشعب باك موجد	فاستجب رب إذا الشعب دعا
وأنل مصر حياة حرة	وكفى تضحية من فجعا
يُشتري العلم بمال وهنا	بنفوس قد أبت أن تهجعا
فليقم في مصر تذكّار لهم	إنهم ساروا إلى الخلد معاً

ورثاهم حضرة الشاعر البليغ الشيخ أحمد الزين بقوله:

أكذا الزمان بأهله يتقلب	والمرء يحسن ظنه فيكذب؟
والنفس تخدعها الأماني ضلّة	ويروقها ذاك البريق الخُلب
ما أكذب الإنسان يخدع نفسه	ويعاتب الزمن الذي لا يعتب!
ويرى مصارع أهله وصحابه	عن جانبيه وإنه لمعقب!

وأرى حمامي كل يوم يقربُ؟!
 نهلوا بكأس للردى لا تعذبُ؟
 والموت إن غر الوفاء محببُ
 حلا تطيب به فموتك أطيّبُ
 وودت لو أنني صريع يُندبُ
 والأرض مخضبة وداد يجذبُ؟
 في معشر أخلاقهم لا تخصبُ
 وتسوءها أخلاقهم فتُغيّبُ
 صلحوا فتكذبها الظنون فتغربُ
 فالبشر منه لو علمت تقطّبُ
 تمسي وتصبح بالمأثم تخصبُ
 والقرد مما قال «درون» يغضبُ
 كدر يجرعه الجهول فيطرِبُ؟
 لكنّ من طلب الصفاء معدّبُ
 يطوي صحائفها الزمان القلّبُ
 أمّ وزفرات يصعّدها أبُ!
 بوداع بدرهما وضعضع منكبُ
 فجرت شئونهما دمًا يتصببُ
 أم عاقه عنا قضاء أغلبُ؟
 أما ألمّ خياله المتأوبُ؟
 لكواكب أخفا سناها المعزبُ؟
 أمست عليهم لوعة تتشعبُ
 ليست لغير الموت فيها توهبُ
 فقد استطال بها عليهم غيهبُ
 صرف الزمان إليهم ويصوبُ
 أرض بها حُمد السرى المتغربُ؟
 سرّا من الأسرار عنا يحجبُ
 منا خبا جلّى الغياهب كوكبُ

عجباً! أأمزح بالحياة وطولها
 ويطيب لي عيشي وأتراب الصّبا
 شوقاً إلى الكأس التي شربوا بها
 وإذا تنكرت الحياة ولم تجد
 عشرون من بعد اثنتين لبيتّها
 أأعيش في قوم يقرّ عيونهم
 لا أخصبت أرض ولا نزل الحيا
 الشمس تشرق بالضياء عليهم
 وتعود ثانيةً وتحسب أنهم
 والزهر يضحك ساخرًا مما يرى
 وتراه يذبل حين تقطفه يد
 وصموا القروود بأنها أصل لهم
 ماذا أوّمل في حياة صفوها
 ليس الذي عرف الحياة معذبًا
 رد العزاء فهذه آمالنا
 كم مدمع كالسحب ترسل فيضه
 قد ودعا أنس الحياة وطيبها
 ذكراه في جنح الظلام تعلّة
 يتساءلان آآب من أسفاره
 يتجاذبان عليه أطراف الأسى
 من لي بقلبي كي أقطعه أسى
 ولو أن أفئدة الأنام تكون لي
 راموا الحياة وإنها [لأمنية]
 كانوا لمصر سراجها إن أظلمت
 وسهامها أمسى يسدد سهمه
 هجروا ديارهم فهل ضاقت بهم
 أناهمو طلب العلوم فعلموا
 لا تياسوا إنا إذا ما كوكب

ورثاهم الأديب الفاضل الشيخ أحمد عبد الماجد المدرس بمدرسة المعلمات
بالإسكندرية بهذه القصيدة:

يا موت حسبك قد قطعت أكبادي
للعلم كان رحيلهم فما لك لا
هلاً رحمت شبابهم وغربتهم
صدمتهم فتزلزلت لصدمتهم
بكى المقطم والأهرام نائحة
بكت مدارسنا فقدان زهرتها
دمع العلوم على طلابها انسجما
وكُونِي سحبا في الجو سائرة
سقياً لكم شهداء العلم والوطن
لولا مفاجأة المنون ما قصرت
ومن يهاجر إلى العليا ليحرزها
لئن بعدتم فما نأت فضائلكم
إن الفضائل ملك لا زوال له
لا شيء أثبت من حق يعززه

* * *

يا مصر قد وَقَدْتُكَ النائبات فلا
دعى المنام فقد مستك قارعة
لو كان في قطرنا التعليم أجمعه
إن الحوادث للإنسان موقظة
خطب وفَجَّعَ بمصر كل آونة
يا ملهم الصبر إن الصبر حاجتنا
يا مسبل الستر خلي الستر منسبلاً
تبغي المنام فهذا وقت إجهاد
واسعى لترقية التعليم في الوادي
ما مات في صدمة سباق آماد
هيهات أن ندع التعليم كالعادي
صبراً لهذا البلاء الرائع الغادي
فامنن بصبرك وارحم أنة الوادي
على كنانتك التُّكلى لأمجاد

ورثاهم حضرة الشاعر الأخلاقي عباس محمود العقاد بقصيدة منها:

خير الوفود وأكرم الركبان	هذا الوداع أم اللقاء الثاني؟
عدتم فهل شفي الغليل بعودكم	بعد الفراق وقرت العيان؟
وتجمع الشمل الشتيت فهل دنا	ما كان في «أودين» ليس بدان؟
والهفة القطان إن مآبكم	غير المآب لوصلة القطان

ورثاهم عبد القادر أفندي المازني بقصيدة مطلعها:

بستان آمالنا لقد ذبلت فيك زهور من أنق الزهر

ومنها:

قد مالت الشمس صوب مغربها	في بُرد حسن في الأفق مستطر
هممت بتوديعنا وقد لبست	أفواف زَيْن لها ومفتخر
تنأى الهوينى كأن عالمنا	معهد لذاتها لدى الصغر
وأي جمع لنا متى انحدرت	يخطو على دق طبلة القدر؟

ورثاهم حضرة أحمد رامي أفندي الشاعر المعروف بقصيدة، منها:

أيها الراحلون في طلب	العلم ولا عودة ليوم المعاد
قد صبرنا على النوى وارتقبنا	فرحة للقاء بعد البعاد
فإذا بالوداع كان إلى المو	ت كأن كنتم على ميعاد

ورثاهم حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ مهدي أحمدي خليل بقصيدة، منها:

أمل تعثّر في رجاء خائب	في فتية درجوا كأمس الذاهب
هي صدمة بـ «أودين» كانت إنما	آلامها في صدر مصر الواجب
والهفتاه على الدم الزاكي جرى	فسقى أديم الأرض سقي سحائب!
للترب تستبق الدماء غزيرة	فاعجب لماء وارِدٍ للشارب!

ورثاهم الشاعر الوجداني محمود أفندي رمزي نظم بهذه القصيدة:

يا بدورًا تغيبت قبل تم وغصونًا قد هزها المجلد للعلم رحلت تطلب المعالي ولكنه إيه رفقًا بأنفس هي لولا وعزاء شبيبة النيل منهم إن أردتم أن تملئوا أنفس المو دولة النيل شيدها فما من	ونجومًا من أفقها قد تهاوت ولكن تقصفت حين مالت وقف الموت في الطريق فماتت أنها عدت لمصر لسالت أي حال تحت السماء ما استحالت؟ تى حياةً وإن تكن قد زالت دولة شادها الشباب فدالت
---	--

ورثاهم محمد أفندي توفيق خاكي بهذه القصيدة:

دمع عيني من دماء اندفعا وفروع أصلها دوح العلا بيد الأقدار غدرا هصرت لبثت في قطرها راشقة بارحته أمة تلك الربى ما لها قد حطمت من صدمة يا له من نبا قد شيببت يا قطارًا لو مشى متئدًا قد أضاع الأمس منا أملًا لا «أدين» القطر يا ذا أبدًا إن هذا الخطب خطب فادح دك طود الصبر منه دكة لو قضى بالخطب شخص واحد لو حبا فرط البكا عودتهم أيهذا لا تخل إن الذي نحن قوم قد صدقنا عزمة	لغصون أخجلت غض النقا بسواها ما اتخذنا مرتقى ي بالغصن كان فيها مورقا من مياه العلم ما قد أغدقا كي تزيد الزهر منها رونقا في سبيل العلم قبل الملتقى؟ حادثات الدهر فيه مفرقا! بشباب القطر هل كان الشقا؟ ودماء طاهرات دفقا إن سهما للقضا قد أرشقا كل رأس من صداه أطرقا خر موسى الرشد منها صعقا لتأسى القطر عما أحدقا غرق الجثمان منا غرقا قد ألم الوهن منه لحقا لا يرى اليأس إلينا طرقا
---	---

إن تكن منا نجومٌ أَفَلَّتْ	فهلال العلم فينا أشرقاً
في جنان الخلد يا من قد قضوا	وديار الصالحين الملتقى
ضمّد الله جراحاً للأولى	قد نجوا في عمرهم طال البقا
ونما من جدهم نبت العلا	لنراه للذرى منبثقا

كلمات الكتاب في رثاء الشهداء

كلمة الكاتب القدير الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش نزيل برلين.

دمعة محزون

لقد كان للنبا الذي هبط بنا في يوم الاثنين ٢٩ مارس من التأثير ما لا يكاد يستطيع القلم وصفه، فوجئنا بنبا تلك الصدمة الكبرى التي فقدت بها بلادنا العزيزة اثني عشر من خيرة شبابها.

فجاءتنا بذلك الشركات التلغرافية دون تفصيل ولا إيضاح، فأبكت منا العيون وخلعت القلوب لولا بقية من الصبر ألقاها الله علينا، فأمكنتنا من التفكير فيما عسى أن نستطيع عمله في سبيل إسعاف الجرحى وتدبير أمر من فقدنا من الشهداء، ولقد استطاع بعض الإخوان الحصول على الإذن بالسفر إلى فينا لاطلاعهم على الخبر في بكرة ذلك اليوم. أما كاتب هذه السطور فقد كنت في أحد المستشفيات لأشهد عمليةً جراحيةً بسيطةً لبعض إخواني من الطلبة، فلم أعد إلى منزلي حتى كانت الساعة الثانية من ظهر ذلك اليوم، إذ كانت سائر المصالح معطلة فلم يسعني سوى الصبر إلى الغد، وهناك استأنفت اتخاذ التدابير اللازمة للسفر، تلك التدابير التي استغرقت الصباح برمته، وكنا نظن أنا واثنان معي أن التدابير قد تمت، ولكن حينما كنا بدار قنصل الشيكوسلوفاكية رأينا من الأسباب ما اضطرنا إلى إرجاء السفر إلى اليوم التالي؛ لا سيما وأنه لم يكن ثمة إكسبريس للسفر في ذلك اليوم، فلم يسعنا سوى الانتظار الذي قضت به الضرورة، ولكن هوّن علينا الأمر وصول إخواننا الذين سبقونا إلى فينا، ثم ما علمنا من أن ما معنا من البساפורتات لا

يبيح لنا الدخول في الحدود الإيطالية، ولكننا في اليوم الثالث سعيًا في إنجاز المساعي اللازمة للسفر إلى فينا، وبينما نحن نفكر بُعِدَ الظهر في أمر القطار والتأهب للرحيل إذ بشابين وفدا إليّ وإذا هما من جملة البعثة التي نزلت بها تلك الفاجعة الموحشة، فأخذًا يقصان عليّ الحادثة الفظيعة، فأخبراني بما كان من إعادة الجرحى وهم ثمانية نفر إلى تريستا ودفن الاثني عشر الشهداء في مكان الحادثة، بعد أن أُخِذَت صورهم الفتوغرافية وعُلمَت مضاجعهم هنالك بأرقام، وأن الباقيين الناجين من تلك الحادثة قد قدموا بالفعل فينا وقرروا أن يقدموا برلين زمرةً زمرةً، فكان هذان الزائران أول الفئات القادمة.

نعم قَصًا عليّ من أمر تلك الكارثة ما ضاعف آلامي وأحزاني لا سيما بعد إذ علمت أن ضحايانا بالأمس كانوا خيرة البعثات العلمية التي أُمّت هذه البلاد بعد الحرب. لم يستطع هذان الزائران أن يزوداني إذ ذاك بسائر الأسماء والنوعوت، ولكن الزمرة التي قدمت بالأمس (٣ أبريل الجاري)، وكانت تتألف من ثلاثة، وفدت إلى منزلي بُعِدَ الظهر من ذلك اليوم فعلمت منها أسماء الشهداء والجرحى وتفاصيل الكارثة التي قصها عليّ أحدهم وكان في نفس العربية التي تحطمت تقريبًا، وقد اتصل بي الآن تلغراف من الوفد الذي ذهب إلى مكان الحادثة يفيد أن الجرحى في حالة حسنة، وأن الشهداء اتُّخِذَت لهم الوسائل التحنيطية لإرسالهم بعدُ إلى وطنهم الحزين.

وهنا أتقدم إلى وطني العزيز بالتعزية في طائفة من خيرة شبابه وأبر أبنائه لم يهجروه في لعب ولا لهو ولم يفارقوه في قَلَى ولا جفاء، ولكن وقفوا حياتهم على خدمته وأرواحهم على تفديته وسائر مواهبهم على نصرته، فما فارقوه إلا في سبيله ولا حرموا أعينهم الاكتحال بمنظره إلا ليتزودوا له بالأعمال الصالحة والفنون النافعة، ثم ينقلبوا إليه ليكونوا حماة استقلاله ودعائم مجده وزينة شعبه. فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة رحمته بالشهداء الأبرار والمجاهدين الأخيار.

أما أنتم آباء أولئك الشهداء وذوي قرابتهم، فحسبكم عزاءً فيما أصابكم فيهم أن القطر برمته أَلَمَ كما أَلَمَ وانتحب كما انتحبتهم، فكارتهم ليست مصاب الاثني عشر بيتًا التي نبتوا فيها وشبُّوا بين جدرانها ثم برزوا للأمة بما زودتهم من نبيل شيمها ومكارم أخلاقها، ولكنه مصاب أربعة عشر مليونًا

من البشر يتألف منهم جسم أمتنا العزيزة ومصاب وادي النيل الذي يرتقب
من بنيه النجباء من سيأخذ بيديه إلى ساحل السلامة وينتشله من الأرزاء التي
لا يزال يخوض غمارها. فصبر جميل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

برلين في ٣ أبريل

عبد العزيز جاويش

(١) أي شهداء مصر، لحضرة الكاتب البليغ صادق أفندي عنبر المحرر بجريدة الأخبار

على تلك الآمال التي حالت آلامًا، وتلك الأمانى التي عدت عليها المنايا.
على تلك الأملّة التي هَوَتْ في غير هالتها ثم حُمِلَتْ إلى دارتها.
على أولئك الذين حيّوا بموتهم ذلك حياة لا يلم عليها فناء ولا يلحقها عفاء.
على أولئك الذين رمت بهم همتهم وراء آمالهم ثم لَجَّ بهم العثار.
على أولئك الذين رحل كل منهم عن مصر وقد احتواها قلبه الآمل ثم أدخلوا إليها
ليحويهم قلبها الثاكل.

على أولئك الذين خرجوا من ديارهم يتدفقون مُنَى ونصرةً وشبابًا، وأبى القدر إلا
أن يعودوا إليها أجسامًا هامدةً وفكرًا على الدهر خالدةً.
على أولئك الذين أعجلتهم مناياهم من أمانهم فقضوا نحبهم من قبل أن يقضوا
من العلا أربهم تحيةً مصر وسلامها.

أي شهداء مصر، لقد رحلتم عن دياركم لا قالين ولا سالين، ولكن نزعةً إلى ورود
العلم صفوفًا من كل شائبة صوّبت بكم إلى تلك الديار فانبعثتم أعلى ما كنتم همهً وأوفى
ما عهدتم للمجد ذمةً، فلم تكادوا تقطعون المرحلة الأولى حتى ملك عليكم السبيل مُنْزَل
الكواكب في غير داراتها ومُحِيلها عن قراراتها، فلما نعاكم النعاة إلى مصر نَعَوْا إلى كل
نفس جميل صبرها.

لقد كان خطبكم خطب هذا الوطن الذي إليه تَعَتَّزُونَ وكنتم به تَعَتَّزُونَ، فإنكم
ما رحلتم عنه إلا لأجله ولا فصلتم عنه إلا لوصله، وإن أرواحكم المطلة من عليين لَتَرَى
مصر اليوم وقد استحالَت مَأْتَمًا وتشهد هذا الوادي عليه سواده وتجتلي للنيل وقد أظله
حداده جزعًا عليكم وإشفاقًا مما حل بكم.

أي شهداء مصر، لقد خلعتم عليها شبابكم، ولعل طيفها كان آخر ما مر بمخيلاتكم واسمها كان آخر ما لفظته أفواهكم، وربما كان آخر خفقات قلوبكم خفقة التعلق بها والتوجع لها، فحريٌّ بها اليوم وقد عاقها القدر أن تقيم لكم المواكب أحياء أن تقيم عليكم المآتم شهداء.

لقد بكتكم بلادكم إذ دخلتموها لا كما خرجتم منها، فقد زابلموها وأنتم لها نذر ورجعتم إليها وأنتم لها فخر، ولعزيز عليها أن تهب بكم فلا تجيبون لها نداءً وتدعوكم فلا تسمعون لها نداءً.

فسلام عليكم يوم رحلتم عن بلادكم، وسلام عليكم يوم عدا عليكم القضاء فأذبل منكم الزهر الجني وأذوى الأمل الفتى، وسلام عليكم يوم بلغت جثثكم هذا الوطن الأسيف، والله المسئول أن يتغمدكم برحماته ويفرغ على قلوب المحزونين فيكم صبراً جميلاً.

(٢) ضحايا الغربة

اهتزت القلوب جزعاً وانهمرت العبرات حزناً لذلك النبأ المروّع الذي مات فيه عدد من الطلبة المصريين النازحين إلى أوروبا طلباً للعلم وجُرح فيه آخرون. ولا شك أن خسارة الأمة بفقد أبنائها مما يستوجب الحزن الشديد والأسف العام، فإنها لم تفقد بهم أفراداً منها وأعضاء عاملين من مجموعها فقط، بل فقدت ما كانت ترجوه من الخير على أيديهم، فقدت تلك الكنوز العلمية الغالية التي تطوعوا لنقلها إلى وطنهم، فقدت من أبنائها فريقاً لم يعبأ بما يتجشمه من المشاق لتحقيق أمنية هي أشرف ما تتوق إليه النفوس وأمجد ما يضحى في سبيله بكل عزيز.

على أبناء كل أمة واجبة مقدسة منها ما تضحي من أجله النفوس بلا تردد، فإنك إذا نظرت إلى الملايين من الشبان الذين ضحوا بحياتهم في الحروب القديمة والحديثة لرأيتهم يُهرعون إلى ميادين القتال ويقابلون الموت بصدر رحب قياماً بواجبهم في الدفاع عن كيانهم أو انتصاراً لمبادئ عالية مقدسة تقضي محبة الإنسانية وحمائيتها بالدفاع عنها، ولئن عم الحزن الأوطان التي ينتمي إليها أولئك المجاهدون ففخرها بشمّهم وشهامتهم مخلّد على ممر الأيام. ولئن ألقينا بنظرة على سطح الكرة الأرضية رأينا الملايين من أبناء كل أمة منتشرين على وجهها بعيدين عن أوطانهم وأسرانهم، إما لعودة بمال أو بعلم، أو لتوطيد سلطان دولتهم في الأنحاء المختلفة من العالم، وكم يموت منهم في كل يوم بحادث أو بغير حادث!

وكم من ألوف من الناس غرقت بهم البواخر! وكم ألوف منهم تحطمت بهم الطيارات! وكم من ألوف فتكت بهم الحميات في مجاهل أفريقيا؟ وكم من الألوف لاقوا حتفهم في الاكتشافات العلمية والجغرافية! وكم وكم! كل ذلك لم يُننِ عزم مواطنيهم عن الدأب على تحقيق الغرض الأسمى، فإن الموت نتيجة طبيعية للحياة:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

فلو كان للقضاء والقدر حساب في نظر الأمم الراقية لما رأينا أحدًا من أبنائها خارج موطنه، بل لما رأيناه خارج بيته، وهيهات أن يمنع ذلك من وقوعه! سافر ذلك الفريق من الأمة في طلب العلم، وأنعم به من مطلب! فكان من المقدور أن يقع ذلك الحادث غير المنتظر الذي فقد بعضهم أرواحهم فيه. حادث محزن تنفطر له القلوب ويعم الأسف الأمة بأسرها من أجله، ولكنه ليس بالحادث الفريد في بابهِ ولا بالذي يقل من عزم شبابنا على ورود مناهل العلم ويضعف في شجاعته، ولا هو بالذي يثير في نفوس الأباء والأمهات عواطف الحنو الأبوي فيقيم منها حاجزًا بين أبنائهم وبين أن يكونوا رجالًا نافعين لوطنهم وللدنيا ولأنفسهم، بل هم أولى بأن يتخذوا منه محرّكًا إلى سد النقص الذي طرأ على ذلك الصف المجاهد في سبيل أشرف الغايات وأقدسها. ولا شك أن الأمة ستعمل واجبها حيال الذين ماتوا في سبيل خدمتها بتكريمهم وتخليد ذكراهم، وهي وإن كانت ستبكيهم فهم فخر لها ولآبائهم الذين أنجبوا رجالًا صادفتهم المنية في طريقهم إلى العلم والعلا.

متألم

(٣) جلال الموت وذكره، لسيد أفندي علي رئيس تحرير النظام

كنت أود أن أيمم إلى الإسكندرية لأحيي شهداءنا الأعزاء يوم عودتهم إلى بلادهم مزودين بالعدة التي أرادوا أن يستعدوا بها ويعتمدوا عليها في كفاحهم بمعترك الحياة وجهادهم لخير أمة تعشّقوا مجدها وسعادة وطن هاموا بحريته وسُودده.

ولكن أراد القدر المحتوم — ولا راد لإرادته القاسية — أن أقصد ذلك الثغر في يوم عبوس مكفهراً لبس فيه ثوب الحداد لأودع زهرةً كنا نرجو أن نراها في القريب يانعة من شباب مصر الزاهر، ولأسكب فوق تربة الشهداء الطاهرة دمعاً حرّى هي كل ما يستطيع قلب الصدوع أمام الموت القاهر.

حقاً إن رزنا فيهم عظيم وخسارتنا بفقدهم جسيمة، فهم النبت الصالح الذي كنا نرجو أن يصبح دوحةً تنفياً الأمة ظلالها الوارفة ويجتني ثمارها الطيبة، ولولا جلال الموت وذكره لما رضينا من وداعهم إلا بمطاورتهم في منزلهم الأخير عند رب كريم رحيم. أما ومصر في عفوان نهضتها وشرخ شبابها تنشد الحياة الخالدة وتدعو أبناءها إلى التفاني في شخصها العظيم الجليل، فإننا نكفكف الدمع ونمسك العبرات لنقف حيال الخطب الجسيم موقف من يقدر أثره في تاريخ مصر الحديث القدر اللائق لسمو نهضتها ونيل مراميها. ولم يضمن المصريون بشيء في جهادهم بحريتهم واستقلالهم، فأثبتوا في مبدأ حركتهم الوطنية استهانتهم بأنفسهم لتحيا بلادهم، وقد جاء الحادث المؤلم أخيراً فشهد لهم بالرغبة في العلم الصحيح ليكون لهم منه العدة التي تكفل لوطنهم بلوغ آماله وتحقيق أمانيه.

والأمة التي يصبو أبنائها إلى حريتها فيفقدونها بالأرواح، ويتشوق شبابها إلى العلم فيحجون إلى مناهله العذبة على بعد مزارها إنما تكون أمة قد بلغت من الرقي النفساني مبلغاً ينأى بها عن مواطن الضعف والمذلة. فإن ودع المصريون اليوم شهداءهم محزونين متوجعين فإنهم يستقبلون لبلادهم عهداً جديداً يبشر بحسن المآل ودنو الآمال.

(٤) لتحيا ذكرى شهداء العلم، لحضرة الكاتب الأديب

محمود رمزي نظيم أفندي

يا شاباً قد كان للنيل يُرجى	كيف لاقيت في الطريق المنية؟
خبرونا بربكم عن بنينا	كيف سالت تلك الدماء الزكية؟
أيها المغمضون عنا المآقي	قد رزئنا بكم أشد الرزية
قد عرجتم إلى السماء وكانت	ترتجيك حياتنا العلمية

إلى رسل العلم، إلى الشهداء الذين فاضت أرواحهم الزكية، وأغمض الموت جفونهم، وأسكت أصواتهم، وأوقف دقات قلوبهم التي كانت تخفق على الآمال الواسعة، والمجد المنشود، والحياة العالية.

إلى الذين سالت دماؤهم بالقضاء والقدر، إلى الذين ناموا إلى الأبد، وضاعت عن سعة نفوسهم الأرض فالتمسوا سعةً في السماء.

إلى الأنجم الزاهرة التي هوت من عليائها، وأفلت بعد بزوغها، إلى إخواننا الذين باغتهم الردى في اتقاد الصبا وشرخ الشباب، تقدم مصر المرزوءة المنتحبة المتشحة بأثواب الحداد تحيةً ملفوفةً بالزفرات الحررى، والحسرات المنبعثة من فؤادها المشتعل. فيا رجاء مصر، ويا أملها، ويا رسلها الذين أوفدتهم لطلب العلم من بلاد النور والحياة، إنا ليحزننا أن ترجعوا إلينا قبل أن تشتفي نفوسكم المتعطشة، يحزننا أن نستقبلكم باكين متحسين مرزوين، وأن لا تقابلونا باسمين، وقد أطفئ نور الحياة من ثغورك البسامة وعيونكم التي كانت تنبعث منها أشعة الذكاء. يحزننا أن نستقبلكم بأثواب الحداد وأن نحدثكم فلا تنطقون وناجيكم فلا تجيبون.

فسلام على تلك النفوس التي راحت تنشد المجد، وخرجت إلى العلم كما يخرج الجندي الباسل فاستشهدت في الميدان، ألا وإن الجندي الذي يخرج إلى الكفاح لا يبالي قُتل أم جرح أم انتصر، سلام على الأرواح التي فاضت في هجرتها إلى العلم فراحت شهيدةً.

سلام على الخلود في شباب مصر، ألا واعلموا أن القدر لا يحول بيننا وبين إرسال الرسل تلو بعضها إلى الغاية التي كنتم تسعون لها حباً في وطنكم المحبوب، فلتطمئن نفوسكم، ولترتاح جنوبكم في مضاجعها، فمصر لا تنام بعد يقظتها. ناموا أيها الشهداء بورك في جهادكم الشريف وموتكم المجيد، أنتم شهداء العلم فلتحي ذكراكم إلى الأبد:

إن مات منا شباب يوم هجرتهم	فمجدنا بالشباب الحي مرتهن
يا عائدين رفاتاً قبل أن يصلوا	إلى المنى كيف لا يبيكم الوطن؟
اليوم عدتم ولم نعد لمقدمكم	إلا دموعاً دعاها الوجد والشجن
وحظنا كان حزناً يوم عودتكم	وكان حظكم الأزهار والكفن

محمود رمزي نظيم

(٥) كلمة للأديب حسن أفندي أحمد الصعيدي طالب هندسة ببرلين

إننا لا نقدر — وايم الحق — أن نَصِفَ ما أصاب قلوب المصريين أجمع النازلين في أوروبا الوسطى ولا مقدار حزنهم لما أصاب إخوانهم الطلبة النازحين من القطر المصري لبرلين لتلقي العلوم في أشهر جامعاتها، ولا مقدار العواطف الشريفة التي أظهروها في وقت الشدة والضيق، فإن كل ذلك نتركه للتاريخ يسجله في صفحاته الخالدة لرجال المستقبل العاملين.

وردت رسالة برقية من فينا تاريخها ٢٦ مارس تنعي شقيقاً لأحد إخواننا الطلبة توفي في حادثة غير عادية في السكك الحديدية وهو في طريقه إلى فينا. فكان لهذا النعي وقع شديد مؤلم في نفوس الطلبة جميعاً وظهرت على وجوههم أمارات الحزن والأسى لهذا المصاب العظيم، فشاطروا صديقهم أحزانه وخففوا آلامه التي لا اندمال لها ولا بُرء بعدها، وليت القدر أمهلنا حتى نستفيق من أحزاننا وتندمل جراحنا، ولكن أسرع في نعي اثني عشر طالباً من الطلبة المصريين وهم في طريقهم إلى فينا، فلم نتمالك أنفسنا من البكاء لهول المصاب وفداحة الرُّزء، ولكن شددنا العزائم وظهرنا بمظهر الرجال، فأسرع كل من رئيس الجمعية المصرية ببرلين الدكتور العناني ووكيلها الدكتور الشربيني وسكرتيرها حسن أفندي إسماعيل بالسفر من برلين مساءً إلى ويانه للقيام بما تقتضيه المروءة والشهامة المصرية في أمثال هذه الحوادث، فودعناهم بعيون تذرف الدمع على شباب مصر الناهض وقلوب مفعمة أسمى وحسرات على هذه الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية التي راحت ضحية العلم، في سبيل مستقبل مصر أرواحهم وفي جنة الخلد مثواهم، رحمهم الله جميعاً وأمطر أحداثهم شآبيب الرحمة والرضوان.

والآن نتقدم بالعزاء لمصر الأسيفة لضياح اثني عشر رجلاً يعملون لمستقبلها قسواً ولم يتمموا أعمالهم، وكذا العزاء الجميل لشباب مصر الناهض وأهل الشهداء وذويهم.

أَمُوتَ بَعِيدًا عَنْ دِيَارِي وَعَنْ أَهْلِي	فَمَنْ يَا تُرَى يَبْكِي حَوَالِيَّ مِنْ أَجْلِي؟
أَمُوتَ بَعِيدًا فِي رُبُوعِ شَبِيبَتِي	وَلَا صَاحِبَ عِنْدِي يَمْرُضُ أَوْ يَسْلِي؟
سَيَقْتَادِنِي حَتْفِي إِلَى الْمَوْتِ صَاغِرًا	وَيَقْطَعُ عَنْ دُنْيَايَ سَيْفَ الرَّدَى حَبْلِي

هذا لسان حال إخواننا الشهداء، طيب الله ثراهم وجعل الفردوس مثواهم! وإننا لله وإننا إليه راجعون.

(٦) كلمة رثاء، لحضرة الكاتب الفاضل والأديب المعروف بسليم شكري أفندي

نَزُولُ كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى
نهار يمر وليل يكر ونجم يغور ونجم يُرى

أبو العلاء المعري

لا كان فجر يوم نعى فيه الناعي اثني عشر شاباً من شبابنا الناهض لفظوا مع الشهاداتين
كلمتي «نموت لتحيا مصر الفتية».

لا كان يوم عبوس قمطرير داهمهم فيه المنون وداهمت أفئدتنا المكلمة.
لا كان يوم غربت فيه عنا آمالنا وأمانينا فيهم. لقد اتحدثم في الموت كما اتحدثم
في الحياة فتلقيتم تلك الصدمة المروعة متكاتفين ومبدؤكم الاتحاد فعلمتمونا هذا الدرس
حين صُدمت قلوبنا الكسيرة بهذا النبأ فاتحدنا في العزاء وفي البكاء.

تصدّع المقطم وزلزل الزلزال وخرجت ربات الخدور نائحات باكيات، وقد خرجتم
للجهاد في ميدان الحياة، وحملتم معكم آمال أمة رءوم وجئتم تسعون على آلة حذاء
جريمة القدر المحتوم، جئتم تتهادون جنباً لجنب وقد توسدت الثرى على مبدأ «الاتحاد»،
لا كانت تلك الساعة التي رأيناكم فيها تُشيعون إلى المقابر.

أودعناكم الثرى وأودعنا معكم أمانينا، وذهبنا إلى النيل لنقسم أنا لا نحيد عن طلب
العلم في مطارح الغربية، مهما لاقينا من صروف القدر وعاديات الحادثات، فإذا بالنيل
يُرغي ويُزبد وقد توشّح بسواد الليل البهيم ثم انساب في جريانه كمن به جنة، يرتطم
بصخره حتى إذا ما كلّ مشى هادئاً مشية البائس المفئود.

أمطر الله قبوركم شأبيب الرحمة وعوّض الآل والأمة الصبر والعزاء.

(٧) كلمة لحضرة أبا ديري أفندي بقطر

يقولون إن أودين بلد إيطالي وقلبي يقول إن أودين بلد مصري، فإن فيه اثني عشر
مليوناً من قلوب أبناء أبي الهول.

فتشت عن أودين على ضفاف النيل فما وجدت، والآن أنا أفتش عن أودين في ربوع
إيطاليا «أين أودين؟ أين أودين؟»

هذه هي أودين فاركعي يا قدمي، اركعي خشوعًا وإجلالًا، واركعي لأنني لا أستطيع الوقوف على مقربة من هذا المكان مصرع شهدائنا. هناك سالت قطرات دمائهم الصافية، واحسرتاه! وهناك سمعت الريح يهمس في أذني أبي الهول أنه في تلك الساعة الرهيبة المشئومة سمع صوتًا ملأ الفضا وما كاد يتضاءل حتى سمع الصدى يردده قائلاً: سلام على مصر، قلوبنا فداء لمصر.

